الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المركز الجامعي أكلي محند أولحاج بالبويرة

معهد الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

البعد السياقي في كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي

إعداد:
* حليمة قرين
* رتيبة عقوني

إشراف الأستاذ:
* بشير بحري

السنة الجامعية: 2010 م / 2011 م.

إلى زينة الحياة ورونقها ومفتاح السعادة و الفوز والديّ الكريمين "محمد ويمينة"

الذين كانا نبراسا أضاء دربي و ذللا صعابي

حفظهما الله وطيب ممشاهما وجعل الجنة مثواهما

إلى الجواهر المتلألئة التي زينت حياتي وشاركتني أحزانى و أفراحي إخوتي

صالح و مصطفى و فريد الذين كانوا نعم الإخوة

وأخواتي فتيحة التي أرجو من الله عزوجل أن يفتح لها أبواب السعادة و الهناء

و ابنتها ثيللي دون أن أنسى زوجها

و إلى سامية مدللة العائلة و زوجها المستقبلي

و إلى كل صديقاتي اللواتي قضيت معهن أسعد الأيام و أحلاها خاصة صديقتي المخلصة

حليمة

و إلى كل أستاذ علمني معنى الإخلاص و الصدق و الوفاء

و زرع في نفسي حب العلم أنارا الله خطاهم ودربهم

إلى التي نُصبّت لتكون خير النَّاس مصاحبة، من تعبت لكي نرتاح، وشقيت لكي نسعد فكانت الحارسَ الأمين والسَّاهرَ دوما على راحتنا، التي لا يوجد في العالم كُلِّه وسادة أنعم من حضنها، ولا سعادة وهناء إلاّ بقربها.

"أمي الغالية"

إلى من غرس فينا الإصرار والعزيمة، ونمَّى فينا حُبَّ العلم، وإتقان العمل، وتعب لكي يكفينا نوائبَ الدَّهر وخطوبَهُ فكان السند الذي ارتكزنا عليه حتى استقام عُودُنا واشتد.

"أبي العزيز"

إلى من درجتُ معهم، واقتطعتُ معهم دروبَ الحياةِ وعشت معهم أجمل الأوقات **"إخوتي"، "أختي"، "ابنة أخي"**.

إلى من جمعتني بهم مراكب الحياة في شاطئ الصداقة جميع صديقاتي سواء في الطفولة أو في الدراسة أو في الغرفة وكل من يعرفني.

إلى من شرَّفَهُمْ الله برسالة العلمِ وجعلَ منزلتهم من منزلة الرسل من أناروا بمصباح العلم عقول البشر وأزاحوا عنهم عتمة الجهل جميع المعلمين والأساتذة الذين

مقدمة:

تعتبر علوم القرآن من أشرف العلوم وأجلَّها وأفضلها، وأنفعها لكون موضوعها كتاب الله، ولكون غايتها الاعتصام بكلام الله، ما جعل الصَّحابة والتَّابعين، ومن جاءَ بعدهم يهتمون بهذا العلمِ فأقبلوا على كتاب الله مفسرِّين ألفاظهُ، موضّحين معانيه، كاشفين عن علومه، وحقائقه، مظهرين إعجاز بيانهِ، مُجَّلين محاسنه، ولأن معرفة السَّياق تعتبرُ من الأدوات الفنية التي تساهم في تحقيق ذلك كون القرآن الكريم نزل متفرقا حسبَ الظروف والأحوال فقد نالَ – السياق – حِصَّة الأسد من اهتمام الدَّارسين وعلى وجه الخصوص المفسرين، وعلماء القرآن إلى درجة أنهم اعتبروه من الحليّ الثّمينة التي وجبَ على أيّ مقبل على القرآن الكريم سواءُ بالقراءة أو بالدَّراسة أن يتزيَّن بها"لأنهم أدركوا بحِسَّهم العلمي أن استجْلاَءَ الحقائق العجيبة الكامنة وراء الخطاب القرآني، وإدراك معانيه، والفهم الدقيق السليم لمقصديَّة كلام الله عزَّ وجلَّ لا يتحقق إلاَّ من خلال المعرفة والإحاطة الشَّاملة بمختلف الملابسات السياقية التي أحاطت بالنص القرآني.

ولاكتشاف مدى اهتمام علماء القرآن بالسياق قمنا برحلة عبر الزمن والتي قادنا فيها البحث إلى إحدى الكتب العتيدة في علوم القرآن ألا وهو كتاب **" البرهان في علوم القرآن "** الذي طرق فيه الزركشي إلى فضاءاتِ سياقية واسعة ومتنوعة، ولكي يفتح لنا الزركشي باب كتابه ليقولَ هذا الكتاب ما يريد أن يقوله لابد من إدخال كلمة السر والمتمثلة في:

ما هي الفضاءات السياقية التي طرقها الزركشي في كتابه؟ وما طبيعتها؟

ويعود سبب اختيارنَا لهذا الموضوع إلى رغبتنا الجامحة في أن تكون دراستنا في القرآن الكريم، إضافة إلى إعادة البريق لاسم الزَّركشي هذا العالم الفذ الذي لم يعد لَهُ مثيل في عصرنا وأضحى مطمورًا في زوايا النسيان، هادفين من وراء ذلك إلى تبيان دور السياق في تحديد مقاصد

القرآن الكريم المتنوَّعة، والتَّأكيد من جديد على تفرُّدِ وتميُّز النص القرآني بنظمه وأسلوبه، وسِحْرِ بيانه، وكيفية عرضه وتصويره لمختلف المواقف.

وقد اعتمدنا في إنجاز هذا البحث على المنهج **الوصفي التحليلي** الذي قمنا من خلاله على وصف ظاهرة السّياق في كتاب البرهان وتحليلها سائرين في ذلك وفق خطّة تتكوَّن عناصرها من مقدمة متبوعة بفصلين تتلوهُمَا خاتمة وقد قسمنا كل فصل إلى مبحثين، فتناولنا في الفصل الأول المُعَنْوَن بـ **: الزركشي وكتابه البرهان في علوم القرآن** ترجمة لحياة الزركشي ولكتابهِ، أما في الفصل الثاني المعنون بـ **: السياق في كتاب البرهان في علوم القرآن** فقد تناولنا مفهوم السياق لغة واصطلاحًا وأهميته، إضافة إلى أنواع السياق **كالسياق المقامي** المتمثل في أسباب النزول والمكي والمدني **والسياق اللغوي** المتمثل في السياق التركيبي (المناسبة) والسياق البلاغي (التقديم والتأخير).

ولجمع المادة العلمية التي تكون منها بحثنا استعنا بمجموعة من المصادر والمراجع أهمها: **البرهان في علوم القرآن** بجزأيه الأول والثاني لبدر الدين الزّركشي، **دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم** لمنير محمود المسيري، **بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم** لعلي أبي القاسم عون، **الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق** لخلود العمّوش وغيرها.

أمَّا عن الصعوبات التي واجهتنا فنقول: إنَّ أي عمل كيفما كان شكلهُ أو نوعهُ بداية طريقة دومًا تأتي محفوفة بالأشواك والمصاعب وعملنا هو الآخَرُ لم يَخْلُ من تلك الصعوبات والعقبات التي اعترضت سبيلنا أثناء إنجازنا له ومنها: عدم حصولنا على الجزء الأوَّل من كتاب البرهان في علوم القرآن إلاَّ في فترة متأخِّرة مما عرقل مهمتنا، وكذا قلة الدَّراسات المتخصَّصة حول هذا الكتاب.

وما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن كتاب البرهان يتألف من أربع مجلدات ولدراستها جميعا دراسة وافيةً وشاملةً يتطلب وقتًا كبيرًا، لهذا اكتفينا بدراسة المجلد الأول والثالث على أمل أن يستكمل باحثون آخرون دراسة هذا الموضوع لأنَّه وبكل صدق موضوع شيِّق ومفيد وممتع في الوقت نفسه لمن أراد أن يستفيد ويتعرَّف على شتى المعارف والعلوم.

لكن على الرُّغم من العقبات والعراقيل التي واجهتنا إلاَّ أنَّنا تمكَّنَّا بفضل الله وعونه، ثم بفضل أستاذنا الفاضل بحري بشير من تخطِّي كل المصاعب فقد ظل واقفًا معنا إلى آخر لحظة من عمر هذا البحث بنصائحه وتوجيهاته، لذا فأقلُّ واجب نقوم به إزاء هذا المعروف أو الجميل الذي صنعه الأستاذ معنا إسداءُ الشكر إليه لأن من لم يشكر النَّاس لم يشكر الله، فلك منّا يا أستاذ موفور الشكر والتقدير، وأسمى معاني وعبارات الامتنان والعرفان لصبرك علينا والمساعدة الكبيرة التي قدَّمتها إلينا فكنت لنا نعم المشرف والموجه بأخلاقك النبيلة وبتواضعك الذي زادك وقارًا.

جزاك اللهُ عنا كل خير ورزقك حظًا وافرًا من رضاه.

كما نتوجه بالشكر أيضا إلى كل من قدم إلينا يد العون والمساعدة ولو بالكلمة الطيبة والتوجيه على وجه الخصوص الأستاذ بوجمل، طهراوي، جوادي. كما لا يفوتنا شكر من كان لَهُ دور كبير في خروج هذا العمل ورؤيته النور من خلال عملية الكتابة الدَّقيقة والمتم

الفصل الأول

إن رحلة الإنسان على متن قطار الحياة لا تقدّر قيمتها بطول مشوارهِ العمري، بل تقدّر بقيمة الأثر الذي خلّفه وراءه والذي تحفظه وتخلده له الذّاكرة الإنسانية على مرّ العصور والأزمان، ولعلّ أحد الذين آثروا درب العلم والمعرفة وجعلوه مرشدا، ومؤيدا، ومعينا لهم كي يشقّوا به طريق الحياة ويتغلبوا به على كل المتاعب والصعوبات التي قد تواجههم، وتعترض سبيلهم نجد وحيد دهره، وفريد عصره، الذي ما فتئ أن قطف من بستان العلوم أزهاراً جميلة، تفوحُ بعبيرها على كُلّ من يقرأ أو يَتصفَّحُ إحدى إبداعاته ألا وهو العلامة الفذ والإمام المبدع المعروف باسم الزَّركشي.

فمن يكون هذا الرجل يا ترى؟ وفيم تمثَّلت إسهاماتُه العلميّة؟

I)التعريف بالزركشي:

هو العّلامة بدر الدَّين محمّد بن عبد الله بن بهادر الزّركشي، المصري الشَّافعي، إمام من أئمَّة الإسلام، وعلم من أعلام الشَّافعية[1] ، وأحد العلماء الأثبات الذَّين سطع نجمُهم بمصرّ في القرن الثامن هجري[2] ، كما أنّهُ جِهْبذٌ من جهابذة أهل النّظر وأرباب الاجتهاد، وهو أيضا علم من أعلام الفقه، والحديث، والتفسير، وأصول الدَّين، واللغة والأدب[3] وقد قيل عنه أنه تركي الأصل، مصري المولد والوفاة، شافعيُّ المذهب.

وُلد بالقاهرة سنة سبعمائة وخمسة وأربعين للهجرة (745هـ) في كنف أسرة متواضعة لم يشتهِر منها أحدُ في ركاب العلم والوجاهة ويذكُر أن أباه كان مملوكاً ولعل تعلمه صناعة الزركشة تعود أصولها إلى والده فكان يُكَنى بابن الزركشي[4]، وكانت القاهرة غاصّة بالفضلاء وحملة العلم، معمورة بالمدارس، زاخرة بدور الكتب الخاصّة والعامّة، والمساجد الحافلة بطلاَّب المعرفة الوافدين من شتَّى الجهات، ولم يكد يبلغ سِنَّ الحداثة (سن طلب العلم) حتى انتظم في حلقات الدُروس، وتفقه بمذهب الشافعي، وحفظ كتاب "المناهج في الفروع" للإمام النَّووي وصار يُعْرف بالمنهاجي نسبة إلى هذا الكتاب. وقد تتلمذ الزركشي على أيدي ثُلة من العلماء الأخيار، على رأسهم الشيخ جمال الدين الأسنوي رئيس الشّافعيَّة بالدَّيار المصريّة، بدر العلماء الزّاهر، وكوكبهم المتألق حيث لزمه ونهل من علمه ما شاء لَهُ أن ينهل فكان من أنجب تلاميذه، وأوعاهُمْ، وأفضلهم، وأذكاهم، كما تخرّج على الشيخ سراج الدين البلقيني، والحافظ مغلطاي وغيرهم من شيوخ مصر وعلمائها[5] ، ثُمّ سَمعَ عن الشيخ شهاب الدين الأذرعي بحلب والحافظ بن كثير بدمشق فشدّ إليهما الرَّحال، سافَر إلى حلب أولا حيث تفقَّه على الأذرعي وأخذ عنهُ علم الأصول، ثُمّ سافَر بعد ذلك إلى دمشق حيث أخذ الحديث عن الحافظ بن كثير ثُمّ عاد إلى القاهرة بعد أن جمع أشتات العلوم وأحاطَ بالأصولِ والفروع وعرفَ الغامضَ الواضحَ ووعى الغريبَ والنَّادر، أَضِفْ إلَى ذلك ما كان يتميَّزُ به من ذكاءٍ وفطنةٍ وثقافةٍ شاملة، وحسٍّ بصيرٍ، وذوقٍ ناقد ممّا أَهَّلهُ لِلْفَتْيَا والتَّدريس، والتَّوفُّر على

---

[1] - ينظر : بدر الدين محمد بن عبد الله الزّركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تح: فضيلة أبو الوفا مصطفى المراغي، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة، ط1989،2،ص8.

[2] - عبد الحميد أحمد محمد علي، مباحث التشبيه عند الزّركشي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1984،ص13.

[3] - بدر الدين محمد بن عبد الله الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل، ج1، مكتبة دار التراث، القاهرة ص3.

[4] - حازم سعيد حيدر، علوم القرآن بين البرهان والإتقان دراسة موازنة، دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، ط2، 2006 م، ص29، ص 30.

[1]- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 3، 4.

الجميع والتصنيف حيث اجتمع لَهُ من المؤلفات[1] ما لم يجتمع لغيره من أفذاذ العلماء وإن لم يعرف الناس هذا الفضل إلاّ بعد وفاته وحين توارت شمس حياته[2].

و مّما أعان الزركشي على استكمال وصقل شخصَّيته العلميَّة شغفه بالكتب، وحبُّه للعزلة، وفراغُ بالهِ من شواغِل العيش ، واكتفاؤُه بالقليل من القوت فقد حكي عن تلميذه شمس الدين البرماوي أنَّه كان منقطعًا إلى الاشتغالِ بالعلم، وكانَ له أقارب يَكْفُونَهُ أمر دنيَاهُ[3].

أمّا عن الصَّفات الخُلُقيَّة التي طبعت شخصِّيتَهُ فقد كانت تشيرُ إلى مستوى من الرُّقي والتَّرَفُّع، فقد كان رَضِيُّ الخُلُق، محمودَ الخصال،عذب الشَّمائل، متواضعًا، رقيقًا، لَيِّنًا، يلبَسُ الخلْقَ من الثِّيَابِ، ويرضى بالقليل من الزَّادِ فلاَ يَشْغَلُهُ شيءٌ من مطالبِ الدُنيا أو شؤون الحياة عن العلمِ، وقد ذكرت كتب التَّراجم أنّ الزَّركشي يحبُّ كتابةُ مصنَّفاتهِ بنفسهِ، وخطه رديء جدًا، قَلَّ من يحسن استخراجهُ، لهذا شاع في الكتب المنقولة عنه الغموض والإبهام والتحريف والتصحيف، ولقي منها الدَّارسون والقُرَّاء العناء الكثير.

بعد حياة حافلة بالجَّد والاجتهاد والتَّصنيف والتأليف توفَّي الزَّركشي مغادرًا الحياة الدُّنيا وتاركًا وراءه فراغًا كبيرًا لا يُمْكِنُ لأيَّ عالِم أخر أن يملأَهُ، وقد كان ذلك في يوم الأحد الثالث من رجب سنة (794 هـ).

ودفِنَ في القرَّافة الصَّغرى بالقربِ من تربة بكتمير السَّاقي.[4]

II) أراء العلماء فيه:

تُعْتَبَرُ شخصيَّة الزَّركشي من الشخصيَّات العظيمة التي لم تَمُرَّ مرور الكرام على حضارتنا، بل وضعت بصمتها، وأَكَّدت حضورهَا، ووجودهَا، وفعَّاليَّتها في هذه الحياة، ولعلَّ الأخلاق الرَّفيعة والقيمَ النَّبيلةَ التي وسَمَت شخصَّيتهُ خاصة حُبّهُ للعلم وَشغفه به، جعلته يتبوَّأُ منزلةً رفيعةً ومكانةً مرموقةً لدى الكثِيرِ من العلماء منهُم ثلَّة لا يُسْتَهانُ بها أفصحَتْ عن رأيهَا فيهِ، والذي كان ينِمُّ في كثيرٍ من الأحيان عن إعجاب واعتزازٍ بهذه الشخصَّية الفذة فابن تعزى بردى مثلاً قال بأنّ الزَّركشي كان بارعًا في الفقه وغيرهِ وشارك في عدَّة فنون وتصدَّى للإفتاء و التَّدريس وأَنَّه أكثر من الكتابة بخطِّه ما بين شروحٍ ومختصرات ومجاميع، وكان غير مزاحمٍ على الرَّئاسةِ، يَلبَسُ الخلقَ من الثِّياب ويحضُرُ بها المجامع والأسواق ولا يحبُّ التعاظم، أما القاضي بن شهبة فقال عنه بأنه كان فقيهًا أصوليًا أديبًا فاضلاً في جميع ذلك[5] وقال عنه ابن حجر بأنه " كان منقطعًا في منزله لا يتردَّدُ إلى أحدٍ إلاَّ إلى سوق الكتب، وإذا حضرَ إليها لا يشتري شيئًا، وإنما يطالع في حانوت الكُتُبي طول نهاره ومعهُ ظهورُ أوراقُ يعَلِّقُ فيها ما يعجبهُ ثم يرجعُ فينقله إلى تصانيفه ".[6]

فالزَّركشي وبشهادة العلماء عليه يستحقُّ وسامَ التَّقدير والشَّرف لأنه كان رجلا مِثاليًا سواء بعلمه أو بأخلاقه.

III) مؤلّفاته:

إنّ رحلة الإنسان بحثا عن العلم وتحصيلهِ لا تنتهي بمجَّرد بلوغ هذه الغاية، بل تُعتبَرُ هذه الأخيرة نقطة انطلاقٍ لرحلةٍ جديدة، وقد صدق من قال إن العمل ثمرَةُ العلم ومثبّته، لأن العلم في أيّ زمان ومكان يحتاجُ دومًا إلى تدوين وتوثيق، والزَّركشي كما هو معروفُ عنهُ دائمُ الحرصِ

---

[2]- ينظر: عبد الحميد أحمد محمد علي، مباحث التشبيه عند الزركشي ، ص 14.

3-ينظر: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص 8.

[4]- ينظر: بدر الدين محمد عبد الله الزركشي، المصدر السابق، ص 4، 5..

[5] - ينظر: عبد الحميد أحمد محمد علي، المرجع السَّابق، ص 25.

[1]- ينظر: محمد عثمان يوسف، النص القرآني عند الزَّركشي بين الفهم والتذّوق، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، القاهرة، 2009، ص 150.

[2]- ينظر: ابن حجر العسقلاني، الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج4، الهند، 1929، ص 117.

على تقديم أطيب الثَّمار التي جناهَا من بساتين العلم والمعرفة، لذلك جاءَ محصوله يانعًا وقد تبلورَ في مجموعةٍ من الدُّرر الثمينة التي لا يمكن لأي طالبِ للعلم أن يستغنيَ عنهَا لِمَا فيها من اللَّذة، والمتعةِ، والإفادة والتشويق.

" وقد ذكرت كتب التَّراجم أنَّها بلغت خمسةً وأربعين مُؤَلَّفًا في علوم القرآن، والحديث ومصطلحه، والفقه، والقواعد، والأصول والتَّوحيد والكلام، ومنه التَّاريخ والرَّجال والبلاغة، والأدب، والمديح، والحكمة، والمنطق "[1] ، والمتأمَّل لهذا الإنتاج الغزير يلحظُ فيهِ صفاءَ الذّهن، وعمق الفكرة، ودقَّة التَّحقيق، ووضوح الأسلوب، وإشراق الدَّيباجة، وكثرة الاستشهادِ بالقرآن الكريم، وفصيح العربية شعرها ونثرها[2] وهذه قائمة لأهم وأشهر مُؤَّلفاته:

1) الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة، طبع بالمطبعة الهاشمية بدمشق سنة 1939.
2) إعلام الساجد بأحكام المساجد، منه نسخة خطِّية بمكتبة الجامع المقدَّس بصنعاء، ومنه نسخة أيضا في مكتبة آصاف وأخرى في رامبور.
3) البحر المحيط في أصول الفقه، ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية.
4) البرهان في علوم القرآن.
5) تخريج أحاديث الشَّرحِ الكبير للرَّافعي المسَمَّى بكتاب "فتح العزيز على كتاب الوجيز".
6) تشنيف المسامع بجمع الجوامع طُبع في مجموع شروح جمع الجوامع بمصر سنة 1322 هـ.
7) تفسيرُ القرآن.
8) تكملة شرح المنهاج للإمام النَّووي.
9) التَّنقيح لألفاظ الجامع الصَّحيح، طُبع بالمطبعة المصرية سنة 1933 م.
10) خادمُ الرَّافعي والرّوضة في الفروع.
11) خبايا الزَّوايا في الفروع، منه نسخة بالمكتبة التيمورَّية.
12) خلاصة الفنون الأربعة.
13)الديباج في توضيح المنهاج.
14) ربيع الغزلان في الأدب.
15) رسالة في كلمات التوحيد
16) زهر العريش في أحكام الحشيش.
17) سلاسلُ الذهب في الأصول.
18) شرحُ الأربعين نووية.
19) شرح البخاري.
20) شرح التنبيه للشيرازي.
21) شرح الوجيز في الفروع للغزالي.
22) عقود الجمان وتذييل وفيات الأعيان لابن خلكان.
23) الغُرَر السَّوافر فيمَا يحتاجُ إليه المسافر.[3]
24) فتاوى الزركشي.
25) في أحكام التمني.
26) القواعد في الفروع.
27) اللآلئُ المنثورة في الأحاديثِ المشهورة.
28) لقطة العجلان وبَلَّة الظمآن في أصولِ الفقهِ والحكمةِ والمنطق.

---

[3]- ينظر: محمد عثمان يوسف، المرجع السَّابق، ص 151.

[1]- ينظر: عبد الحميد أحمد محمد علي، مباحث التشبيه عند الزّركشي، ص 15.

[3] - بدر الدين الزركشي ،البرهان في علوم القرآن ، ج 1، ص 6، 7، 8، 9.

29) ما لا يسع المُكَلَّف جهلهُ.[1]

في ختام هذه الرَّحلة الممتعة التي أبحرنَا من خلالها في أغوار شخصية عالم متميَّز والذي لم يعد لَهُ مثيل في عصرنَا الحاضر أدركنا القيمة الحقيقيَّة للعلمِ والغاية من ضرورة تحصيله التي بذل من أجله علماؤُنا القدامى وعلى رأسهم الزركشي كل غالٍ ونفيس، لأنَّهُمْ أدركوا أنَّ الغايةَ الحقيقية من العلم هي الوصول إلى معرفة الله، وعليه ما يسعنا في الأخير إلاَّ أن نسأل المولى عزَّ وجل أن يرحم الزَّركشي، ويُجْزِلَ ثوابَهُ بقدر ما قَدَّمَ للقرآن وعلومهِ من دراساتٍ نافعة أفادَ منها المشتغلونَ بالدَّراسات القرآنيَّة في مختلفِ العصور والأزمان.

قيل من يرد الله به خيرا يُفَقِّهْهُ في الدِّين لأنَّه الشُّعاع المنير الذي يضيءُ دروب الحياة الوعرة، لذلك فإنَّ الفهم الدَّقيق، والصَّحيح لَهُ، والإيمان العميق بما جَاءَ فيه من تشريع، ومبادئ، وقيم، يحقِّقُ للنَّفسِ البشريَّة الشُّعورَ بالطُّمأنينة والرِّضا، ويُمَكِّنُهاَ من استشعارِ اللَّذَّة الحقيقيَّة للسَّعادة، وعليه فمن تحقَّقَ لَهُ ذلك كأنَّمَا حيزَت لَهُ الدُّنيا ومن عليها وقد كان الزَّركشي من أولئك المحظوظين الذين أَحَبَّهُمْ اللهُ، وساقَ إليهم الخير الوفيرَ وذلك بأن هداه، وَوَّفقَهُ إلى تأليف كتابٍ متفرَّد، أقلُّ ما يُقَالُ عنهُ أنَّهُ يُمَثِّلُ خارطة طريق ترشدُ المُبْحِرَ في دروب العلمِ إلى مفتاحِ الكنز البديع، المتمثل في أعظم كتابٍ أنزَلَهُ اللهُ تعالى وهو القرآن الكريم.

ا) <u>التعريف بكتاب البرهان في علوم القرآن</u>:

يعتبَرُ كتاب البرهان في علوم القرآن أحد المؤلَّفَات البديعة التي ظهرت فيها براعة الزَّركشي، وعبقرِيَّتِهِ من خلال الطَّرحِ العلمي المتميَّز للقضايا التي ناقشها فيه، ومن خلال الأسلوب الفَنِّي البديع الذي مَكَّنَهُ من تقديم الأفكار التي يسعى لإيصالها إلى المتَلقي أحسن تقديم، أضف إلى ذلك المنهج المتميَّز الذي سارَ عليهِ الزَّركشي في كتابِهِ، كُلُّ هذا إن دَلَّ على شيء إنَّما يَدّلُ على فهمهِ الجيِّد للنص القرآني، وإحاطته بمختلف علومه، مّما جَعَل كتابَهُ من الكتب العلمية ذات العيار الثَّقيل، ويعود السبب في تأليف الزّركشي لهذا الكتاب إلى " أن المتقدِّمين (سابقيه من العلماء) لم يؤَلِّفوا في علوم القرآن، بالإضافة إلى أنَّهُ أرادَ من كتابَهِ أن يكون وسيلة تعينُ المفَسَّرين في الكشف عن حقائق القرآن الكريم والتَّعَرُّفِ على بعض أسراره ودقائقه "[2] ، لذلك فإنّ كتابَهُ يُعدُّ من

---

[1]- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 9، 10، 11، 12.

[1]- ينظر: محمد عثمان يوسف، النص القرآني عند الزركشي بين الفهم والتذوق، ص 219.

الكُتُب العتيدة وأنْفَسِهَا التي جمعت عصارة أقوال المُتَقَدِّمينَ، وصفوة آراءِ المُحقِّقينَ حولَ القرآنِ الكريم - كتاب الله الخالد- على الرغم من ذلك إلاّ أنَّهُ " لم يكن معروفًا لدى الباحثينَ، و لاَ مُتَدَاوَلاً بين الطُّلاَّب والدَّارسين، عدا قِّلة من المشغوفِين بمعرفةِ النَّوادر ورُوَّادِ المكتبات، شأنهُ شأنِ الكثيرِ من كتب الزَّركشي على عِظِم خَطرِهَا، وجلالة موضوعاتها، ومقدارِ غِنَائِهَا ونفعها، حتى دَلَّنَا عليه الإمام جلال الدِّين السُّيوطي في مقدِّمة كتابه الإتقان في علوم القرآن فقد عدَّهُ أصلاً من الأصول التي يبنى عليهَا كتابَهُ، وتأَسَّى، طريقتَهُ وتقيَّل مذهبَهُ، وسارَ في الدَّربِ الذي سلكه ".[1]

ظلّ كتاب البرهان مخطوطًا متواريًا عن العَيَان، مطمورًا في زوايا النِّسيان، إلى أن جاء العالم الجليل مُحمَّد أبو الفضل إبراهيم فحَّققهُ في أربعة أجزاء وقد بدأ الزَّركشي كتابَهُ بمقدِّمة وفصلين، الفصلُ الأول في علوم التفسير، والفصلُ الثاني في علومِ القرآن.

أشار في المقدِّمة إلى أن علوم القرآن لا تنحصرُ ومعانيه لا تستقصى، لذلكَ استخَار الله عَزَّ وجَلَّ في وضع كتابِ جامِعٍ لِمَا تكَلَّم النَّاسُ في فنونِهِ، وخاضوا في نُكَتِهِ وَعيونهِ وضَمَّنَّهُ من المعاني الأنيقة، والحكم الرَّشيقة مَا يَهُزُّ القلوبَ طربًا، ويبهرُ العقول عجبًا ليكونَ مفتاحًا لأبوابهِ وعنوانًا على كتابه.

كما قسّم كتابه البرهان في علوم القرآن إلى سبعة وأربعين نوعًا، كل نوع يدورُ حول موضوعٍ خاصٍ من علوم القرآن ومباحثه حيث يستأهلُ كل نوع أن يَكونَ موضوعًا لِمُؤَلَّفٍ خاص، بدأه بالنَّوع الأوَّل في معرفة أسباب النزول، وختَمَهُ بالنَّوع السَّابع والأربعين في معرفة الأدوات، كما حاول في كُلّ موضوع أن يؤرِّخَ لَهُ، ويحصي الكتب التي أُلِّفَتْ وفيه يشيرِ إلى العلماء الذين تدارسوهُ، وحاوَل أيضًا جمع أشتات المسائل، وجمع آراء السَّلَف والخلفِ فيها فضَمَّ أقوالَ المفسِّرينَ والمُحَدِّثينَ إلى مباحثِ الفقهاء والأصوليِّين، إلى قضايا المتكلِّمينَ وأصحابِ الجدل، إلى مسائل العربيَّة وآراء أرباب الفصاحة والبيان.

لقد شاء اللهُ أن يخرُجَ هذا الكتابُ فريدًا في فَنِّهِ، شريفًا في أغراضهِ مَعَ سدادِ المنهج وعذوبة المورد، وغزارة المادّة بعيدًا عن التَّعمية واللُّبسِ، نائيًا عن الحشو والفضول.[2]

II) <u>المنهج الذي سلكَهُ الزّركشي في كتابه:</u>

نظرًا لعظمة السرِّ الذي أودعَهُ الله سبحانَهُ وتعالى في تنزيلهِ المُحْكَم الذي بهَرَ العقول والقلوبَ ببراعة نظمهِ، وإعجاز أسلوبه، فإنَّ التصانيفَ والمؤَّلفَات في محاولة الكشف عن هذا اللغز العجيب تعدَّدت، كما تعَدَّدت معها المناهجُ والطُّرق المُتبَعَة في ذلك لكن على الرُّغم من كُلّ هذه المحاولات إلاَّ أنَّ القرآن الكريم ما يزال يُشَكِّلُ نصًا مفتوحًا متعدِّد القراءات وخير دليل على ما نقول قول سهل بن عبد الله " لو أعطى العبْدُ بكلّ حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودَعهُ اللهُ في آية من كتابهِ، لأنه كلامُ الله، وكلامُ اللهِ صفتهُ، وكما أنَّهُ ليسَ لِلَّهِ نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامهِ، وإنَّما يفهمُ كُلُّ بمقدار ما يفتَحُ الله عليه ".[3]

فهم الزَّركشي للنصّ القرآني يختلفُ اختلافًا عن فهم سابقيه على الرُّغم من أن المادّة العلميَّة التي جمعهَا في كتاب البرهان مستقاةٌ من عندهم حيث كانَ لَهُ فهمهُ الخاص، ومنهجهُ المتميِّز، وعليهِ فإنّ َمن يقرأُ كتابَ البرهان في علومِ القرآنِ يلتمسُ فهم الزَّركشي ويستطيع أن يتبيَّن سماتَ منهجهِ التي يمكن إيجازها فيما يلي:

1) ابتكاره لمنهج في عرضِ علوم القرآن، وذلك بإحاطته بجميع جوانب النَّوع الذي يتناوَلُهُ بالدَّرسِ حيث يبيّن:

أ) – من صَنَّفَ فيه.

---

[2]- ينظر بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 13.

[2] - ينظر: عبد الحميد أحمد محمد علي، مباحث التشبيه عند الإمام الزّركشي، ص 24.

[3] - ينظر: محمد عثمان يوسف، النص القرآني عند الزركشي بين الفهم والتذوق، ص 219.

ب)- فوائدُ هذا النَّوع.
ج) – مصادرهُ التي استقى منها مادَّتهُ.
د) – أقوالُ العلماء التي جاءَت في هذا النَّوعِ، أقوال المفسَّرينَ والمحَدَّثينَ، والفقهاء، وأرباب الفصاحة، وأمراء البيان، وسادات القوافي ومناقشَتِهَا، وترجيح الصَّحيح منها، وتأييده.
ه) – إبداءُ رأيهِ إذا اقتضى الأمر.
2) معالجته لتلك الأنواع من منظورٍ فقهي جمع فيه بينَ المذاهبِ الفقهيَّة، وتفسيري جمَعَ فيه بين الاتجاهات التفسيريَّة المتنوَّعة[1].
3) يميل غالبًا إلى الإيجاز والاختصار حتى في رواية الأحاديث، ويكتفي أحيانا منهُ بالأطراف، ومواضع الأدَّلة وهو مع ذلك محَّررُ العبارة، قليل الاستطراد.
4) يهجم على موضوعهِ دون مراوغة والاحتيالِ شأن الواثق بعملهِ وقدرته على التَّعبير عمَّا يريد بأ خصرِ عبارة وأوجز لفظ.
5) كان كثير الاستشهاد بالآيات القرآنية والشَّواهد الشعرية وكان يجمع آراء العلماء في الآية القرآنية الواحدة.
6) كان يكثر من هذه الألفاظ " قيل "، " فإن قلتُه "، " قلتُ "، ويبدو أنَّهُ تأثَّرَ بالزَّمخشري في ذلك.
7) كان يتخيَّرُ الأساليب التي تنضحُ عليها ثقافته اللغويَّة والأدبيَّة ويرصَّعها بغرائب اللُّغة، وفرائد الشَّعر فهو عالم من قلة العلماء الذين تختصم في أذهانهم ملكاتُ الفقه والأدب.
8) كان يقسم الموضوعَ الذي يبحثُ فيه إلى أقسامٍ وجزئيَّات فيتسنَّى لَهُ من ذلك أن يُلِمَّ بأشتاتِ الموضوع إلمامًا كافيًا فيبحثُهُ بحثا مستقصيًا متأنِّيًا يجمَعُ فيه كُلَّ ما قيلَ حولَهُ من أفكار وآراء علميَّة ناضجة.
9) اعتمد على مصادر أصليَّة، لها قيمتها العلميَّة، ووزنها الأدبي.[2]

III) <u>المصادر التي استقى الزّركشي منها مادّة كتابه:</u>

إنَّ أول ما يستوقف المتصفِّحَ لكتاب البرهان في علوم القرآن ذلك الزَّخم المعرفي الهائل الذي ميَّز الكتاب، وتلك المادَّة العلمية الغزيرة التي وشَّحته، ورفعت من قيمته بين المؤَّلفَات الأخرى، كُلُّ هذا إن دَلَّ على شيء إنما يدلُّ على اطِّلاع الزَّركشي الواسع على مختلف العلوم، وإحاطته بِكُلَّ ما كان يدورُ في الساحة العلميَّة آنذاك حيث اغترفَ من بحور المصادر في التَّفسير، والفقهِ والنحو، والبلاغَة، وغيرها ما يشفي به غليل السَّائل والباحث.
لكن على " كثرة تلك المصادِر وتنوُّعها إلاَّ أنَّهُ لم يكن ناقلاً لآراء الآخرين بل كان ناقلاً واعيًا ومدركًا بكُلَ ّ ما ينقله، مُتفهَّمًا لَهُ بالقَدَر الذي يخدُمُ قضيَّتَهُ التي يناقشها وهذه مجموعة لأهمَّ المصادر التي اعتمدَ عليها:

<u>أولاً: في معرفة أسباب النزول</u>

1) كتاب مختصَرُ التقريب للقاضي أبي بكر محمّد بن الطيّب الباقلاَّني المتوفى سنة 403 هـ.
2) تفسير القرآن للقاضي أبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي المتوفي سنة 543 هـ ويسمى " أحكام القرآن ".
3) صحيح البخاري: لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري توفي سنة 256 هـ.
4) صحيح مسلم: لأبي الحسن مسلم بن الحجَّاج بن مسلم المتوفي سنة 216 هـ.
5) تفسيرُ البغوي: ويسمَّى" معالمُ التنزيل ": لأبي محمد الحسن بن مسعود بن محمد البغوي المتوفي سنة 510 هـ.

---

[1]- ينظر: المرجع السَّابق، ص 219، 220.
[2]- ينظر: عبد الحميد أحمد محمد علي، مباحث التشبيه عند الإمام الزركشي، ص 16.

6) كتاب الأدب المفرد لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري[1].

ثانيًا: فيما يتعلّق بعلم النحو والصَّرف:

في معرفة الأحكام من جهة إفرادها وتركيبها:

1) تفسير الحوفي: المسمى " البرهان في تفسير القرآن " لأبي الحسن.
2) كتاب مشكل غريب القرآن: لمكي بن طالب القيسي توفي سنة 427 هـ.
3) كتاب إملاء ما منَّ به الرَّحمن من وجود الإعراب والقراءات لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العبكري توفي سنة 616 هـ
4) كتاب البصائر لأبي حيّان أثير الدين.
5) كتاب المفصَّل للزّمخشري.
6) كتاب اللُّباب في علل البناء والإعراب لأبي البقاء عبد الله بن أبي الحسين.

ثالثًا: ما يتعلق بتفسير القرآن وأحكامه:

في معرفة تفسيره وتأويله:

1) كتاب الصّاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها لأحمد ابن فارس[2].
2) كتاب شفاء الصدور لأبي الرَّبيع سليمان.
3) كتاب الكامل في معرفة ضعفاء المُحدَّثين وعلل الحديث لأبي أحمد بن عُدي الجرجاني.

رابعًا: فيما يتعلَّق بعلوم البلاغة:

في معرفة المناسبات بين الآيات:

1) كتاب إعجاز القرآن: لأبي بكر الباقلاَّني.
2) كتاب سراج الدَّين المُريدين: للقاضي أبي بكر بن العربي.

في معرفة الفواصل ورؤوس الآي:

1) كتاب روضة الطّرائف في رسم المصاحف: لإبراهيم بن عمر إبراهيم الجعبري.

في معرفة أساليب القرآن وفنونه البليغة:

1) كتاب الأقصى القريب المُسَمَّى: أقصى القرب في صناعة الأدب للتتُّوخي زين الدين أبو عبد الله.
2) كتاب الأمالي لثعلب أبو العَبَّاس.
3) كتاب شرحِ المُفصَّل: لابن يعيش[3].

IV) آراء حول الكتاب:

أجمع معظم العلماء على أن كتاب البرهان في علوم القرآن يعد ثروة معرفية هائلة وذلك لتنوُّع المصادر والعلوم التي استقى منها الزّركشي مادة كتابه وذكروا مجموعة من النقاط التي تُحْسَبُ له في البرهان منها:

- حِفْظُهُ لهذا الجمَّ الغفير من مصادر التَّراث العربي الموجود منها بين أيدينا والمفقود.
- حفظهُ لفقرات كاملة من بعض المصادر المطبوعة الموجودة بين أيدينَا من ذلك مثلا: كتاب منهاج البلغاء، الذي ذكر محقِّقُهُ أن الزَّركشي قد نقلَ عنه في ثمانية مواضع.
- استفادَ الزَّركشي من تلك المصادر دون أن يكون تابعًا لهَا.
- ساعدت تلكَ المصادر على تعدَّد ثقافة الزَّركشي واتِّجاهاته الفكرِّية فأنتج لنا كتابه البرهان بالإضافة إلى المؤَّلفات القيِّمة الأخرى.

غير أنَّ الذي يريد استخلاص تلك المصادر من البرهان فإنَّه لا يتأتّى لهُ ذلك إلاَّ بالصَّبر والمثابرة على ما يتَّضح من:

---

[1]- ينظر: محمد عثمان يوسف، النص القرآني عند الزَّركشي بين الفهم والتذوق، ص 172، 173.

[1]- ينظر: محمد عثمان يوسف، النص القرآني عند الزَّركشي بين الفهم والتذوق ص 186، 187، 188، 196.

[2]- المرجع نفسه، ص 196، 197، 198، 199، 202.

- عدم ذكره لاسم المصدر ومكتفيًا بذكر صاحب المصدر على سبيل المثال قولُهُ: وقال ابن عبد البر، أو غيرُه وذلك موجود في مواضعَ كثيرة من الكتاب.
- عدم ذكره لاسم المصدر كاملاً كقوله: وذكرَ القاضي في الانتصار وذلك أيضًا موجودٌ بكثرة في الكتاب.
- ذكره للمُصنَّفِ بأكثر من لقب، فمن ذلكَ قولهُ: واحتَّج بين عبد البَرَّ، ثم يقول في موضعٍ آخر: قال: أبو عمر والمقصود بهِ ابن عبد الَبرَّ.[1]

الفصل الثاني

يُعتبرُ السَّياق من عمدة المباحث التي شغلت اهتمامَ الباحثين والدَّارسين قديمًا وحديثًا، والتي أُسِيْلَ فيها الحبرُ الكثير لأنَّه بمثابة الحارسِ الأمين لمملكة المعنى.

ونظرًا لهذه الأهميَّة التي يكتسيها فقد حظي بعناية وحرصٍ شديدين في الدَّراسات القرآنية على وجه الخصوص علوم القرآنِ التي اِنبنَتْ عن وعيُ متقدَّمٍ بحقيقة انسجامِ الخطاب القرآني مع واقعهِ الخارجي واتَّساقهِ في بنائِهِ الدَّاخلي، وانتبهت إلى أثر السَّياق في تحديد المعنى فليس بمقدور المعجمِ وحدهُ أن يُلبَّي دائمًا طلبات القارئ وليس بمستطاعهِ الإجابة عن كُلَّ الأسئلة التي يطرحها النص.

ما هو السياق؟ وكيف تجلَّى في كتاب البرهان في علوم القرآن؟

<u>مفهوم السياق:</u>

أ) <u>لغة:</u>

إنَّ الصُّورة المعجميَّة لأيَّ لفظ في اللُّغة العربيَّة بمثابة المرجعيَّة الأولى لهذا اللَّفظ في القاموس الخطابي، فالحالة المعجمية للألفاظ تُمثِّلُ الصُّورة الأساسيَّة لمحيطها الدَّلالي، وللتَّحَرِّي الدَّقيق عن مدلول لفظة السَّياق وما يقودنا إليه هذا الأصلُ من معانِ احتوتها حروفهُ، قمنَّا بتتبُّع ورود هذه اللفظة في بعض المعاجم اللُّغوية.

<u>لفظة السياق في المعاجم العربيَّة:</u>

[1] - محمد عثمان يوسف، النص القرآني عند الزّركشي بين الفهم والتذوق، ص 214، 215، 216،218.

ممّا لا شك فيه أنَّ الباحث في المعاجم العربيَّة القديمة عن مدلول لفظة السَّياق فإنه سيجدُ فيها ما يَسُدُّ حاجتَهُ ويشفي غليله، ذلك أن القدماء أولوها – لفظة السياق- عناية كبيرة حيث قدَّموا لها شرحًا وافيًا مُلِمًّا بِكُلِّ ما تحملهُ هذه اللَّفظة من معان، ومن المعاجم المُتقدَّمة التي وجدنا فيها تداوُلاً لمادة (س و ق) " لسان العرب " لابن منظور حيث فيه: "ساق الإبل وغيرها يسوقُها سَوقًا وسياقًا، وهو سائق وسوَّاق شُدِّدَ للمبالغة، قال الخطم القيسي:

لقد لَفَّهَا اللَّيل بِسَوَّاق خُطَمْ

وقوله تعالى: ﴿ **وَجَاْءَتْ كُلُّ نفسٍ مَعَهَا سَاْئِقُ ٌ وَشَهِيْد** ﴾

قيل في التفسير سائق يسوقها إلى محشرهَا، وشهيدُ ٌ يشهَدُ عليها بعملها (...) وفي الحديث لا تقوم السَّاعة حتى يخرُجَ رجُلُ ٌ من قحطانَ يسوقُ النَّاس بعصَاهُ، كناية عن استقامة النَّاسِ وانقيادهم إليه واتِّفَاقهم عليه.

ومنه رويدك سوقك بالقوارير، وقد انساقت وتساوَقت الإبل تساوُقًا إذا تتابعت، وكذا تقَاوَدت فهي متقاودة ومتساوقة والمساوقة: المتابعة كأنَّ بعضًا يسوق بعضًا، والأصل في تَسَاوَقُ تتسَاوَقُ، وساق إليها الصَّداق والمهر سياقًا، وأساقَهُ بعضًا عن بعض وإن كان دراهم أو دنانيرَ، لأنَّ أصلَ الصّداق عند العرب الإبل وهي تُسَاقُ، (...) وساق فلان امرأته أي أعطاهَا مهرها.

السَّياق: نزعُ الروح، والسُّوق موضع البياعات، وتَسَوَّقَ القومُ إذا باعوا واشتروا[1].

ومن المعاجم المتقدَّمة التي وردت فيها لفظة السياق ـ **أساس البلاغة** ـ للزمخشري حيث جاء فيه: "ساق الغنم فانساقت (...) وتسَوَّق القومُ اتَّخذوا سُوْقًا، ونحى العَدُوُّ الوسيقة والسَّيْقَةَ وهي الطَّريدةُ التي يطردُها من إبل، (...) ومن المجاز: ساق الله إليه خيرًا وساق إليها المهرَ، وساقت الرِّيحُ السَّحاب، وتساوقت الإبلُ تتابعت، وهو يسوقُ الحديثَ أحسن سياق، وإليك يساقُ الحديث وهذا الكلامُ مساقهُ إلى كذا، وجئتكَ بالحديث على سوقهِ: سرده، والمرءُ سَيِّقَهُ القدر: يسوقُهُ إلى ما قُدِّرَ لَهُ لا يعدُوهُ".[2]

من خلال تتبُّعنا لمادة س و ق وما صيغ منها في المعاجم اللُّغويَّة القديمةِ وجدنا بأن دلالتها لا تبتعدُ عن ذلك المجال الذي رسمهُ القرآن الكريم لها في مواطن عديدة منها **قوله تعالى:** ﴿ **وَسِيْقَ الذِيْنَ كَفَرُوْا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرَا** ﴾[3]

وقوله تعالى أيضا: ﴿ **وَنَسُوْقُ المُجْرِمِيْنَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدَا** ﴾[4]

<u>لفظة السياق في المعاجم الحديثة:</u>

تناولت المعاجم الحديثة هي الأخرى هذه المادة (س و ق) بالتَّفسير والتوضيح، ففي المعجم الوسيط "ساق الله إليك خيرًا ونحوه: بعثه إليه وأرسله، وساق الحديث سَرَدَهُ وسلسلَهُ وإليكَ يساقُ الحديث بوجه وساق المهر إلى المرأة أرسلَهُ. وفي دائرة معارف القرن العشرين: ساق الحصان: يسوقهُ سوقًا وسياقه: حثَّهُ على السَّير من خلفهِ، وتَسوَّق القومُ: باعوا واشتروا، وسياق الكلام، أسلوبه، وجاءت هذه الكلمة في سياق: أي في ضمنه"[5].

---

[1]- أبو الفضل جمال الدين مكرم بن منظور، لسان العرب، ج1، دار صادر، بيروت-لبنان، ط1، 1992 م، ص 166، 176.

[2]- محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط 1، 2003 م، ص 422.

[3]- سورة الزمر، 71.

[4]- سورة مريم، 86.

[5]- عبد المنعم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين دراسة لغوية، نحوية، دلالية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية- القاهرة، ط1، 2007 م، ص 25، 27.

ما نخلص إليه في الأخير من مجموع النصوص اللغوَية سواء القديمة أم الحديثة أن السَّياق في الحِسَّ الغوي وبمجموع المعاني التي تدُلُّ عليها تقلباتُ هذه الكلمة، أنَّهُ يدلُّ على تتابع منتظم في الحركة لبلوغ غاية مُحدَّدة.

ب) <u>اصطلاحا</u>:

يعتبر مصطلح السَّياق من المصطلحات العَصِيَّة على التَّحديد الدَّقيق، حيث قال الدكتور عبد الرَّحمن بأنه بحَث في كثير من المقالات من أجل العثور على بعض التعريفات ولم يجد تعريفًا محدَّدًا للسَّياق، كما صرَّح جون لاينز أيضًا بأنَّهُ لا يمكن إعطاء جواب بسيط على السؤال: ما هو السياق؟

ولعَّل هذه الصُّعوبة هي التي جعلت الذين كتبوا في هذا الموضوع يغضُّونَ الطَّرف عن تعريف السَّياق وينتقلونَ إلى تبيين أهميَّته في دراسة المعنى وإظهار وظائفه وعناصرِهِ والحديث عن سياق الحال وغير ذلك من المباحث المتعلِّقة بهذا الموضوع[1].

ومن التعريفات التي يمكن أن تندرجَ في التَّعريف الاصطلاحي للسَّياق ما وردَ في بعض المعاجم الحديثة والتي ترى بأن السَّياق بيئة الكلام ومحيطهِ وقرائنه، أو هو علاقة البناء الكُلِّي للنَّص بأيَّ جزءٍ من أجزائهِ.

تشير هذه التَّعريفات إلى تضافر سياقات عديدة في النَّص تساهِم في صياغة الرسالة اللُّغوية وهي السَّياقات النَّحويَّة والبلاغيَّة والصوتيَّة وقد اهتمَّ النُّقادُ، والدَّلالِيُّون، واللَّسانِيُّون والأسلوبيُّون بالسَّياق من وجهاتٍ مختلفة فدرس أوستن استخراج السَّياق من خلال البنى المختلفة للرَّسالة اللُّغويَّة، واهتمَّ علماء الدَّلالة بالمعنى السَّياقي وقصدوا به المعنى الذي يستخرجُهُ المخاطب من الكلام استنادًا للسَّياق كما في بحوث جون لاينز وفيرث، وأبرز الأسلوبيونَ علاقة الأسلوب بمقتضيات السِياق المقامي، كما عدَّ النُّقَّادُ السَّياق دعامة رئيسيَّة في تحليل النَّص الأدبي، ونجدُ ذلك ماثلا في بحوث " باختين " و" ونورثروب فراي ".

ومع تعدُّد هذه الميادين واختلاف الاتِّجاهات النَّظرية لأصحابها فإنَّها تتَّفقُ في أنَّ السَّياق يُفسَّرُ الكثير من العمليَّات المُصاحبة لأداءِ اللُّغة في وظيفتها التَّواصليَّة والإبلاغيَّة لدى كل من منتج الكلام والمتلقِّي وأنَّه ركن أساسي في فهم الرَّسالة اللُّغويَّة ويأتي السَّياق في نوعين: " السَّياق اللُّغوي "، و" السَّياق المقامي"[2].

<u>أهمَّيته</u>:

للسَّياق أهمية كبيرة في رسم الدَّلالة العامَّة للنَّص فهو الإطارُ العام الذي تنتظمُ فيه عناصرُ النصّ ووحداته اللُّغويَّة، ومقياس تتَّصِل بواسطته الجُمَلُ فيما بينها وتترابطُ، وبيئة لغويَّة وتداوُليَّة ترعى مجموع العناصرِ المعرفية التي يُقدَّمها النص للقارئ.

"فتحديد دلالة الكلمة في نظامِ اللُّغة الذي هو نظام متشابك العلاقاتِ بين وحداتهِ، ومفتوحٌ دومًا على التَّجديد والتَّغيير في بنياتهِ يحتاجُ إلى تحديد مجموع السَّياقات التي تردُ فيها فمارتيني يقول بأن الكلمة خارجَ السَّياق لا تتوفَّر على المعنى أمَّا وتغنستين فيقول لا تفتِّش عن معنى الكلمة وإنَّما عن الطَّريقة التي تستعملُ فيها، فالطريقة التي تستعمل فيها الكلمة هي التي تُصَّنفُ دلالة هذه الكلمة ضمن الدَّلالة الرَّئيسيَّة أو القيم الحافَّة التي تتحدَّدُ معها الصُّور الأسلوبية لأن السَّياق يحملُ حقائق إضافية تشارك الدلالة المعجمية للكلمة في تحديدِ الدَّلالة العامَّة التي قصدها الباث، ويقول ستيفن أولمن بأن السياق وحده هو الذي يُوضَّحُ لنا ما إذا كانت الكلمة ينبغي أن تؤخذَ على أنَّها تعبير موضوعي صِرْفٌ أو أنها قُصِدَ أساسا التعبير عن العواطف والانفعالات"[3].

1- إبراهيم أصبان، السَّياق بين علماء الشريعة والمدارس اللُّغوية الحديثة مقال في مجلة الإحياء، العدد 25، ص 54.

[2]- ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، جدار للكتاب العالمي، عالم الكتب الحديث، عمان- الأردن، 2008م، ص 25، 26.

1- منقور عبد الجليل، علم الدَّلالة، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا، 2001 م، ص 88، 89.

ما نخلص إليه أن أهمية السياق بالنسبة للكلام كأهمية الملح للطَّعام فلا يمكننا أن نتصوَّر كلامًا بمعزل عن السياق الذي قيل فيه بل العلاقة بينهما علاقة استلزامية فهما وجهان لعملة واحدة.

إنَّ القارئ لكتاب البرهان في علوم القرآن قراءة مُتَفَحَّصَةً ودقيقة يُدْرِكُ أنَّ معظم العلوم التي أوردها الزَّركشي في كتابهِ على علاقة جِدُّ وطيدة بالسَّياق، والملاحظ أيضًا في تلك الموضوعات المُتصِلة اتِّصَالاً وثيقًا بالسَّياق أنَّها لا تَخْرُجُ عن نوعين من السَّياق وهما:

السياق المقامي، والسياق اللغوي.

ا) <u>السياق المقامي</u>:

نقصد بالسَّياق المقامي جميع الظَّروف النفسية، والتَّاريخية، والاجتماعية، وأحوال المُخَاطَبِيْنَ، وبيئة الخطاب المحيطة بالنَّص[1] أو هو الموقف الخارجي الذي يمكنُ أن تَقَعَ فيهِ الكلمة فتتغيَّر دلالتها تِبْعًا لتغيُّر الموقف أو المقام[2].

وقد التفت علماءُ العربيَّة من مفسَّرين وبلاغيينَ، ولغويِّينَ إلى هذا السَّياق الاجتماعي وأطلقوا عليه المقام، أو مقتضي الحال مُفرَّقين بينه وبين السَّياق اللُّغوي بعبارتهم الشهيرة " لكل مقام مقال" فاطنين إلى أنَّ اللُّغة ظاهرة اجتماعيَّة شديدة الارتباطِ بثقافة الشعب الذي يتكَّلمها، وأنَّ هذه الثَّقافة في جملتها يمكنُ تحليلها بواسطة حصرِ أنواع السَّياق الاجتماعيَّة المختلفة التي يُسمون كُلاً منها مقامًا.[3]

ومن العلوم التي وردت في كتاب البرهان في علوم القرآن وتندرجُ ضمن هذا النَّوع من السَّياق نجد: " أسباب النُّزول "، المكي والمدني"، نزول القرآن منَجَّمًا"، " الناسخ والمنسوخ"، وقد قصرنا دراستنا على نوعين وهما: **" أسباب النزول "، " والمكي والمدني".**

ا-1) <u>أسباب النزول (السياق التاريخي)</u>:

يُمثِّلُ القولُ في أسباب النُّزول ألصقَ مباحث علوم القرآن بما نحنُ فيه من استقراء بيان العلاقة بين النَّص والسَّياق، فهو دال كاشف عن هذه العلاقة[4]، والمقصود بأسباب النزول حوادث يُروى أنّ آياتٍ من القرآن نزلت لأجلها لبيان حكمها، أو لحكايتها، أو إنكارها أو نحو ذلك[5].

---

[1]- خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، ص 151.

[2]- منقور عبد الجليل، علم الدلالة، ص 90.

[3]- مصطفى شعبان عبد الحميد، المناسبة في القرآن الكريم، دراسة لغوية، أسلوبية للعلاقة بين اللفظ السياق اللغوي، ط1، الاسكندرية، 2007 م، ص 15.

[4]-خلود العموش، المرجع السّابق، ص 82.

[5]- المثنى عبد الفتاح محمود، نظريه السياق القرآني، دراسة تأصلية، دلالية، دار وائل للنشر، ط1 ، 2008 م، ص 145.

وقد خصَّصَ الزركشي في كتاب البرهان في علوم القرآن لأسباب النزول بابًا تحدث فيه عن فائدة المعرفة بأسباب النزول والتي سنجملها في هذه النقاط:

- معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.
- تخصيص الحُكمُ بهِ عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب.
- الوقوف على المعنى فبيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز.
- دفع توَّهم الحصر.
- إزالة الإشكال.[1]

كما أورد فيه أيضًا بعض الآيات التي لا يمكنُ الوقوفُ على معناها إلاّ من خلال معرفة سبب النزول.

انطلاقًا ممَّا أورده الزركشي حول فائدة المعرفة بأسباب النزول نجد أن هذه الأخيرة تعتبَرُ ضابطًا مهمًا في الوصول إلى المعنى المقصود، ذلك أنَّ السَّياق القرآني جاءَ معالجًا لوقائعَ وقعت فلابد من معرفة سياق الحال ليتضحَ سياق المقال[2] لذلك كانت لها عناية خاصة عند المفسَّرين حيث عَدُّوها من قبيل السياق الاجتماعي وقد بلغ اهتمامهم بها أنَّهم نَصُّوا على أنَّهُ لا يمكن تفسير آية قرآنيَّة دون الوقوفِ على أسبابِ نزولها يقول الواحدي " غير أنَّ الرَّغبات اليوم عن علوم القرآن صادقة كاذبة فيها، قد نجزت فيها قوى الملام عن تلاقيها، فآل الأمر بنا إلى إفادة المبتدئينَ المتستَّرينَ بعلم الكتاب إبانةُ ما أُنْزِلَ فيها من الأسباب، إذ هي أوفى ما يجب الوقوفُ عليها، وأولى ما تُصْرَفُ العناية إليها لامتناعِ معرفة تفسير الآية وقصدِ سبيلها دونَ الوقوفِ على قصدهَا وبيان نزولهَا "[3]

وهناك وجهٌ آخر في بيان أهمَّيَّة هذا الضابط وهو أنَّ معرفة أسباب النزول تُقلِّلُ الاحتمالات المؤدَّية إلى النزع في بيان وجه الحق، فالجهل بأسباب التنزيل موقع في الشُبه والإشكالات ومُورِدٌ للنُّصوص الظاهرة موردَ الإجمال حتى يقع الاختلاف وذلك مظَنَّة وقوع النِّزاع، فمعرفة أسبابِ النزول تعينُ على فهمِ المعنى الذي لأجله سيقت الآيات[4].

يقول الزركشي: "

قد تنزلُ الآيات على الأسباب خاصَّة، وتُوْضَعُ كُلُّ واحدة منها معَ ما يناسبها مع الآي رعاية لنظمِ القرآن وحسن السَّياق، فذلك الذي وضعت معه الآية نازلة على سبب خاصٍ للمناسبة، إذا كان مسوقًا لما نزل في معنى يدخُلُ تحتَ ذلك اللَّفظِ العام..." وقد التقط صبحي الصالح هذه الدرَّة من كلام صاحب البرهان وسَّلط عليها ضوء قلمه فكتب: " وفي ضوء الدراسة الرشيقة رأى المحقِّقونَ رأي العين أن نزول الآية على ما اكتشفوهُ من الأسباب الفردية الخاصَّة لا يتعارضُ مع وضعِ الآيات في مواضع تناسبُ سياقها، إذ كان القرآنُ ينزلُ على الأسباب مُنجَّمًا تِبَعًا لما تقرِّق من الوقائع"[5].

إنّ الكثير من الآيات الكريمة لا يقفُ فيها المُفسَّرونَ عند المعاني المعجميَّة للألفاظِ لبيان المراد من هذه الآيات بل تعدو ذلك إلى الكثير ممَّا يمكن أن يندرجَ تحتَ ما يُسَمَّى بسياق الحال، والسَّياق الاجتماعي فهم في كثير من الأحيان لا يتمَسَّكونَ بمطلق مدلول اللَّفظِ وإنَّما يتَّجهون إلى السَّياق العام يكُلَّ أبعاده وعناصره، ويستنطقونَ النصوصَ ليصلوا بذلك إلى المعنى الدلالي الكامل غاية التَّفسير عندهم[6]، وهو ما سيَّتضِحُ فيما أورده الزَّركشي من آيات في كتابه البرهان في علوم القرآن والتي لا يمكن الوقوفُ على معناها إلاَّ من خلال معرفة أسباب النُّزول من ذلك: **قوله تعالى:** ﴿**لَيْسَ عَلَى الذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ جُنَاْحٌ فِيْمَا طَعِمُوْا إِذَاْ مَاْ اِتَقُوْا وَآمَنُوْا وَعَمِلُوْا**

---

[1]- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 22، 23، 27.

[2]- ينظر: المثنى عبد الفتاح، نظرية السياق القرآني، ص 144.

[3]- ينظر: عبد المنعم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، ص 201.

[4]- المثنى عبد الفتاح محمود، المرجع السابق، ص 144.

[1]- المثنى عبد الفتاح، نظرية السياق القرآني، ص 145.

[2]- عبد المنعم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، ص 203.

الصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ اِتَقَوْا وَأَحْسَنُوْا وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِيْنَ ﴾[1] فقد روي عن عثمان بن مظعون وعمر وبن معد يكرب أنَّهُما كان يقولان: الخمرُ مُباحَةٌ ويحتجَّنِ بهذه الآية وخَفِيَ عليهما سبَبُ نزولها[2] غير أن سبب النزول وهو نوع من أنواع السياق يوضّح المعنى الدلالي لها فقد رُوِيَ في سبب النزول <<أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المُزَّكى قال: حدَّثنا: أبو عمر وبن مطر قال: حدَّثنا: أبو خليفة قال: حدَّثنا أبو الوليد قال حدثنا شعبة قال: حدَّثنا: أبو إسحاق عن البراء بن عارب قال: مات من أصحاب النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم وهم يشربون الخمر، فلمَّا حُرِّمت قال: أُناس: كيف بإخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم وقد أخبرنا الله أنها رجس فأنزل الله تعالى: "لَيْسَ عَلَى الذِيْنَ آَمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّٰلِحَٰتِ جُنَاْحُ>>[3] وبهذا يتَّضحُ المعنى الدلالي للآية الكريمة ويرتفعُ ما بها من لُبْسٍ أو غموض.

ومن ذلك أيضًا **قوله تعالى:** ﴿ **لا تَحْسَبَنَّ الذِيْنَ يَفْرَحُوْنَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّوْنَ أَنْ يُحْمَدُوْا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوْا** ﴾ [4] رُوي عن مروان بن الحَكم أنَّهُ بعث إلى ابن عباس يسأله لئن كان كل امرئٍ فَرِحَ بما أوتي وأحب أن يُحْمَدَ بما لم يفعل لَنُعَذَّبَنَّ أجْمَعُون فقال ابن عباس أنَّ هذه الآية نزلت في أهل الكتاب.[5]

إذا اكتفينا بالمعنى المعجمي، فإنَّهُ يقضي بأنَّ كُلَّ من يفرحْ بما يفعل وَحَبَّ أن يُحْمَدَ بما لم يفعل، فهو مُعذَّبُ ولَهُ عذابُ أليم غير أن المعنى الدَّلالي يخالف ذلك، فسياق الحال يُوضَّحُ هذا اللُّبْسَ ويزيل الغموض[6] ذلك أن الوعيد مُرَتَّبُ على أثر الأمرين المذكورين وهما الفرح وحُبُّ الحمدِ، لا عليهما أنفسهما، إذ هما من الأمور الطَّبيعيَّة التي لا يتعلَّقُ بها التكَلُّف أمرًا ولا نهيًا[7].

من ذلك أيضًا **قوله تعالى:** ﴿ **وَلِلَّهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ** ﴾[8] فإنَّا لو تركنا مدلولَ اللفظ لاقتضى أنَّ المُصَلِّي لا يجبُ عليهِ استقبال القبلة سفرًا ولا حضرًا، وهو خلافُ الإجماع فلا يُفْهَمُ مراد الآية حتى يُعْلَمَ سببُها، وذلك أنَّها نزلت لَمَّا صَلَّى النَّبي صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ على راحلته، وهو مستَقْبِلُ من مكَّة إلى المدينة، حيث تَوَجَّهت بِهِ، فُعِلَمَ أنَّ هذا هو المُراد[9].

ممَّا سبق نصلُ إلى أنَّ القرآن الكريم نص واحدُ متَّسِقُ متماسك الأجزاءِ، متلاحم فلو قرأ القارئ النص القرآني بمعرفة لأسباب النُّزولِ لَمَا لَحَظَ أيَّ تفاوُت أو تباين، أو اختلاف في انسيابِ الخطاب وتلاحم أجزائهِ، فقد ساهمت هذه الأسبابُ في الكشف عن طبيعة تفاعل النص القرآني والظَّرف الذي نزَلَ فيه وبسبَبِهِ، وعن تفاعل النَّص القرآني مع المخاطَبينَ.

ا-2) <u>المكي والمدني</u>:

تعتبَرُ المعرفة بمكان الخطاب، أو البيئة التي ترعرَعَ فيها ونما من الضوابط التي يجب أن لا يُغْفَلَ عنها لِمَا لها من مساهمة في استقطار، وتحديد دلالة النص، والأسلوب المُسْتَخْدَمِ فيه، واكتشافِ مدى مراعاة الخطاب لأحوال المُخَاطِبِيْنَ و المُتتبَّعُ لمسار الاهتمام بمكان الخطاب يجد بأنَّ بذورها كانت مع القرآن الكريم كتاب الله الذي لم ينقطع عن قلب المصطفى صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ، حيث "عمل الصحابَةُ ومَنْ جاءَ بعدهم خاصَّة علماء القرآن على ضبط منازل القرآن آيةً آية لذلك فهم على علم بما نَزَلَ بمكة، وما نزل بالمدينة، وما نزَلَ بمكة وحكمهُ مدني، وما نزَل بالمدينة وحكمهُ مكي، وما نزل ببيت المقدس، وما نَزَلَ بالحديبيَّة"[10].

---

[3]- سورة المائدة، 93.

[4]- ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص 28.

[5]- عبد المنعم خليل، المرجع السابق، ص 204

[6]- سورة آل عمران، 188.

[7]- بدر الدين الزركشي، المصدر السابق، ص 27.

[1]- ينظر: عبد المنعم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، ص 204، 205.

[2]- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 28.

[3]- سورة البقرة، 115.

[4]- بدر الدين الزركشي، المصدر السابق، ص 29.

[5]- ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، ص 91.

إلاّ أن ما تجدرُ الإشارة إليه أن القرآن المكي والمدني كانا من أكثر المباحث التي أولاها علماء القرآن عناية فائقة حيث عملوا على وضع ضَوابطَ تساعدُ على معرفة المكي والمدني ذلك لأن أكثر القرآن نزَلَ بمكة والمدينة، كما أنَّ هاتين الأخيرتين (مكة والمدينة) تعتبران من المحطات الأساسية التي ساهمت في تشَكُّلِ النص القرآني، ومن أولئك الذين وجدنا في كتبهم حديثًا عن المكي والمدني الزركشي الذي خصَّص في كتابه البرهان في علوم القرآن بابًا تحَدَّث فيه عن المكي والمدني، والكيفية التي يُعْرَف بها.

أ) <u>تعريف المكي والمدني:</u>

لم يُعطِ العلماء تعريفًا دقيقًا للمكي والمدني بل اختلفوا في ذلك، هناك من اعتمدَ في تعريفه لَهُ على معيار المكان، وهناكَ من اعتمد على معيارِ الزَّمان وقد ذكر الزّركشي هذه التعريفات أثناء حديثه عن معرفة المكي والمدني حيث قال:" وكانَ للناس في ذلك ثلاثة اصطلاحات:

أحدها: أن المكي ما نزلَ بمكَّة، والمدني ما نزلَ بالمدينة.

الثاني: وهو المشهور: أنَّ المكي ما نزلَ قبل الهجرة وإن كان بالمدينة، والمدني ما نزلَ بعد الهجرة، وإن كان بمكَّة.

الثالث: أنَّ المكي ما وَقعَ خطابًا لأهل مكة، والمدني ما وقعَ خطابًا لأهلِ المدينة وعليه يُحْمَلُ قول ابن مسعود الآتي: " لأنَّ الغالب على أهل مكة الكفر فخوطبوا بـ :" يا أيُّها النَّاس " وإن كان غيرهم داخلاً فيهم، وكان الغالبُ على أهل المدينة الإيمان فخوطبوا بـ :" يا أيها الذين آمنوا " وإن كان غيرهم داخلاً فيهم"[1].

ولمعرفة المكي والمدني فإنه لا يمكن الاعتماد على المعيار المكاني وحده والذي يقول أن المكي ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة ذلك أن النبي صلى الله عليه وسَلَّمَ لم يرِد عنه أنه قال: اعملوا أنَّ قدر ما نزل بمكَّة كذا وبالمدينة كذا وفصَّلَهُ لهم، كما أنه لا يمكن الاعتماد على المعيار الزَّماني وحده لأن الوثائق التَّاريخية المتوفَّرة من أقوالِ الصحابة والتَّابعين غير كافية، وفي غياب الوثائق الحاسمة فإنَّ الاعتماد على الذاكرة يجعل معرفة المكي والمدني مسألة اجتهادية، كما أن الاعتماد على معيار المُخاطبين الذي يقول أن المكي ما وقع خطابًا لأهل مكة والمدني ما وقعَ خطابًا لأهلِ المدينة معيارٌ ناقصٌ ذلك أن مخاطبات القرآن كثيرة جدًا، والمُخاطبين بالقرآن يتجاوزونَ ثنائيَّة النَّاس والمؤمنين لذلك وضَعَ العلماء بعض المعايير والضوابط التي تساعد على معرفة المكي والمدني[2]، وقد ذكر الزركشي مجموعة من الآراء لعِدَّة علماء حول هذه الضوابط منها:

- كل سورة فيها يا أيها النَّاس وليس فيها يا أيها الذين آمنوا فهي مكية وفي " الحج خلاف ".
- كل سورة فيها كلاّ فهي مكيّة، وحكمة ذلك أن نصفه الأخير (نصف القرآن حسب ترتيب التلاوة لا حسب ترتيب النزول) نزل أكثره بمكة وأكثرها جبابرة فتكَّررت فيها على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم بخلاف النَّصف الأول.
- كل سورة بها حروف المعجم فهي مكية إلاّ البقرة وآل عمران وفي الَّرعد خلاف.
- كل سورة فيها قصَّة آدم وإبليس فهي مكيَّة سوى سورة البقرة.
- كل سورة فيها ذكر المنافقينَ فمدنِيَّة سوى العنكبوت.

قال " ابن هشام": كل سورة ذُكرت فيها الحدود والفرائض فهي مدنية وكل ما كان فيه ذكرُ القرونِ الماضية فهي مكية.

وقال الجعبري لمعرفة المكي والمدني طريقان: سماعي وقياسي فالسماعي ما وصل إلينا نزوله بأحدهما، والقياسي: كل سورة فيها يا أيها النَّاس فقط، أو كلاّ، أوَّلها حرف تَهَجٍّ سوى الزَّهراوين والرَّعد أو فيهما قصة آدم وإبليس سوى الطولى فهي مكيَّة، وكل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنيَّة[3].

---

[1]- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص 187.

[2]- ينظر: نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط6، 2005 م، ص 78.

[1]- بدر الذين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 189.

أهمية معرفة المكي والمدني:

تكمن أهمية معرفة المكي والمدني فيما يلي:

- معرفة النَّاسخ والمنسوخ[1].
- المكي والمدني يعينُ على تفسير القرآن ومعرفة أسلوب الدَّعوة[2].
- المكي والمدني يعيننا على تحديد موضوع السَّياق وينقلنا إلى الجو الذي نزَلَ فيه، لنتصوَّر طبيعة الموضوع وخصائصهِ، كما أنَّهُ يعين على ضبط تاريخ العلاج العقائدي، وتاريخ التشريع، وتدرُّجه الحكيم بوجه عام، وهذا يعطينا معرفة دقيقة بالسَّابق واللاَّحق.

من الأحكام وكيفيَّة معالجة السَّياق للمشكلات بإعطاء تمهيدات وتهيئة للنفوس، وإزالة عوالق الماضي فالتخلية قبل التحلية[3].

دلالات المكي والمدني:

يتضمَّن القرآن المكي والمدني دلالات عميقة يمكننا تعدادُها فيما يلي:

1) تبيان حكمة المولى عز وجل من خلال أسلوب التنجيم المُحكم الذي أنزل به القرآن الكريم والذي يتضمَّن معنى الواقعِيَّة والتَّدَرُّج بالإنسان وإعانته شيئًا فشيئًا عن التخلي عن الجاهلية وعاداتها المستحكمة فيه وهو المعنى الذي يصدُقُ في كُلَّ عمليَّة تربويَّة فلابُدَّ من التدَّرج في التربية والتعليم، ولابدَّ من المقدَّمات لتكونَ النَّتائج، ولابدَّ من تهيئة العقول لمساعدتها على تقبل أحكام جديدة[4].

2) في المكي والمدني إشارة إلى مرحلتين هامَّتين ساهمتا في تشكيل النَّص سواء على مستوى المضمون أم على مستوى التركيب فإنَّ لكُلَّ مقامٍ مقالاً، ومراعاة لمقتضى الحال، فالخطابُ يختلفُ باختلافِ أنماطِ النَّاسِ ومعتقداتهم وتتلاءَمُ طرائق الخطاب بما يلائِمُ نفسيَّة المُخاطَبْ[5] لذلك اقتضت الموضوعات التي نزل بها القرآن في مكة أن يختلف أسلوبها عن تلك الموضوعات النَّازلة في المدينة، فاختلافُ الأسلوب تابع لاختلافِ الموضوع، فعندما يقرعُ القرآن طبول مسامع المشركين ويُسَفِّهُ آلهتم، ويقلبُ مُجُنَ اعتقادهم على وجههِ، يحتاج هذا إلى أسلوب الجزالة والفخامة، وعندما يخاطبُ المؤمنين في المدينة مُشَرَّعًا لهم أحكامَ حياتهم فالأسلوب سيختلف بطبيعة الحال[6] يقول السيد قطب: <<حين يكون الموضوع الرَّئيس في السُّور المكيَّة هو العقيدة بتفصيلاتها، يكونُ الأسلوب المناسب هو الحركة السَّريعة والنبض السَّريع، ومخاطبة الوجدان (وجدان المخاطبين)، مكمن العقيدة وحين يكون الموضوع الرَّئيس في السور المدنيَّة هو التشريعات والتنظيمات، وبناء المجتمع المسلم وإقامة الدولة المسلمة، وتَثَبُّتِ أركانها إزَّاء الكيد الذي يكيدهُ لَهُ أعداؤهَا، يكونُ الأسلوب المناسب هو الحركة المستأنيَّة والمخاطبة العقليَّة التي تدَعُ المجال للتدبُّرِ والتَّفكير (...)>>[7].

ما نستنتجه من كلام السيَّد قطب أن طبيعة أسلوب الخطاب في كل من القرآن المكي والمدني لم تأتِ عبثًا وبطريقة عشوائية إنما هذا النَّوعُ من الأسلوب صادر عن مُخاطِبٍ حكيم عليم بأحوال البشر، وبكلَّ ما يدور في وجدانهم، لذلك خاطب أهل مكة بأسلوب يختلف تمامًا عن الأسلوب الذي خَاطبَ به أهل المدينة.

II) السياق اللغوي:

يعتبَرُ السياق اللغوي أوفر أنواع السياق الأخرى حظًا فقد شغل جل اهتمام اللغويين، وهو يعني البيئة اللغويَّة المحيطة بالفونيم أو المورفيم أو الجملة، أو هو النظم اللفظي للكلمة وموقعها من

---

[2]- المصدر نفسه، ص 187.
[3]- خلود العموش، الخطاب القرآني، ص 91.
[4]- المثنى عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني، ص 154.
[1]- ينظر: ناصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص 75.
[2]- ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، ص 91.
[3]- المثنى عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني، ص 153.
[4]- قطب، محمد قطب، دراسات قرآنية، دار الشروق، لبنان، ط4، 1983 م، ص 20.

ذلك النظم، فهو يشتملُ على هذه الألفاظ التي تتابع في حدث كلامي، وتربطها وحدة دلالية متماسكة[1] وهناك من يعَّرفُ السياق اللغوي بأنَّهُ المشرفُ على تغيير دلالة الكلمة تبعًا لتغيُّرٍ يمسُّ التركيبَ اللغوي[2].

وما نلاحظهُ على العلوم التي أوردها الزّركشي في كتابه والتي تندرجُ ضمن هذا النَّوع من السياق تنقسمُ إلى نوعين النوع الأول يندرج ضمن السياق التركيبي أمَّا النوع الثاني فإنّهُ يتدرجُ ضمن السياق البلاغي.

II-1) <u>السياق التركيبي</u>:

يعتبر السياق التركيبي أهم أقسام السياق اللغوي لارتباطه بِبِناءِ الوحدات اللغوية ويقصد به "شبكة من العلاقات القواعدية التي تحكم بناءَ الوحدات اللغوية داخلَ النص، وفيها تقومُ كل علاقة بمهمة وظيفة تساعد على بيان الدلالة من خلال القرائن النحويَّة مثل " الإعراب " وهو قرينة سياقيَّة تتعاوَنُ جاهدةً مع غيرها في رسمِ شبكة الدلالة، وأنَّهُ كُلُّ النحو والقرينة السياقيَّة الكبرى وَبهِ يُبيَّنُ المعنى، ويُمَيَّزُ ركبُ المعاني ومن خلالهِ يوقَفُ على أغراض المتكلمين"[3].

ومن العلوم التي أوردها الزركشي في كتابه وتندرجُ ضمن هذا النوع من السياق نجد: **المناسبة** بأنواعها **(المناسبة بين السور، مناسبة فواتح السور وخواتمها، ومناسبة السورة بخاتمة التي قبلها)، في أسرار الفواتح والسور، معرفة اختلاف اللفظ بزيادة أو نقص أو تغيير حركة أو إثبات لفظٍ بدلَ آخر، معرفة الوقف والابتداء، في جميع الوجوه والنظائر**.

وقد اقتصرنا في دراستنا لهذا النوع من السياق على المناسبة.

II)-1-1 <u>المناسبة (الاتِّساق الداخلي)</u>:

يعتبَرُ البحث في موضوع المناسبة أو التناسب الطَّريق الممَهَّد لعلماءِ القرآنِ من أجل البحث في الاتساق الداخلي للنص القرآني والمقصودُ بالمناسبة " وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة أو بين السورة والسورةً أو هي ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءَمُ ولا تتنافرُ، وأن تكون المعاني مناسبة لألفاظها وعلى حَدَّ تعبير ابن العربي هي ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني "[4].

ولأنَّ معرفة المناسبة طريق إلى معرفة تماسك هذا البناء العظيم الذي نزَلَ منَجَّمًا علة مدار ثلاثةٍ وعشرينَ سنة، فقد جعل الزّركشي من المناسبة وجهًا يُطْلَبُ بِهِ معرفة الإعجاز، كما أنَّهُ خصَّص لهَا بابًا مستقلاً في كتابهِ البرهان في علوم القرآن تحدَّث فيهِ عن التَّماسك بين الآيات والسور، والآليات التي تحكمُ ذلك التماسك وقد عرَّف المناسبة على النحو التالي:<<واعلم أنَّ المناسبة علم شريف، تحزرُ به العقول، ويُعْرَفُ بِهِ قدرُ القائل فيما يقول: والمناسبة في اللغة المقاربة، وفلانٌ يناسبُ فلانًا أي يقتربُ منه ويشاكله، ومنه النَّسيب الذي هو القريب المتصل، كالأخوين وابن العم ونحوه، وإن كان متنا سبين بمعنى رابطٌ بينهما، وهو القرابة، ومنه المناسبة في العلة في باب القياس: الوصفُ المقارب للحكم، لأنه إذا حصلت مقاربته لَهُ ظنَّ عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم، ولهذا قيل المناسبة أمر معقول، إذا عرض على العقول تَلَقَّتْهُ بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها ومرجعها – والله أعلم – إلى معنى رابط بينهما: عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالسبب والمُسبَّب، والعلة والمعلول، والنظيرين، والضدين، ونحوه أو التلازم الخارجي كالمرتب على الترتيب الواقع في باب الخبر>>.

---

[1]- مصطفى شعبان عبد الحميد، المناسبة في القرآن الكريم، ص 17.

[2]- منقور عبد الجليل، علم الدلالة، ص 90.

[3]- ينظر: عبد القادر عبد الجليل، المعجم الوصفي لمباحث علم الدلالة العام، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ص 213.

[4]- ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني، ص 106.

من خلال هذا التعريف تبرز لنا وتتَّضحُ معالم المناسبة والآليَّات التي تحكمُ هذا التناسب عند الزركشي الذي لم يكتفِ بتقديم تعريف المناسبة بل تعدى ذلك إلى تبيان فائدتها وتعداد أنواعها وهو يرى أنَّ فائدة المناسبة تكمن في جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصيرُ التأليف حالُهُ حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء[1] ومن فائدتها أيضًا أنها تعمل على ربط الكلام بعضَهُ ببعض من جهة الألفاظِ أو المعاني أو من جهتهما جميعًا، بحيث لا نستطيع أن نستبدل أجزاء أخرى من الكلام بأجزائهِ الموجودة فيه أو تغيير وضعهِ الذي جَاءَ عليهِ وإن حدث ذلك تنافر الكلام شكلا ومعنى[2].

II)-1-2أنواع المناسبة:

ذكر الزركشي في كتابهِ البرهان أنواعا عديدة للمناسبة منها:

أ- المناسبة بين السور: ويندرج ضمن المناسبة بين السور كل من التناسب بين فواتح السور وخواتمها ومناسبة السورة للحرف الذي بنيت عليه.

التناسب بين فواتح السور وخواتمها: يعتبَرُ التناسب بين فواتح السور وخواتمها سرًا من أسرار الإعجاز القرآني وتميَّزه عن غيره فهو معجز بلفظه ومعناهُ لأنه كلام الله سبحانه وتعالى المنزَّهِ عن الزلل والخطأ يقول الزركشي في هذا النوع من المناسبة << هو مبني على أن ترتيب السور توقيفي، وإذا اعتبرت افتتاحَ كل سورة وجدتهُ في غاية المناسبة لِمَا خُتِمَ بهِ السورة قبلها (...)>>.

ومن أمثلة هذا التناسب افتتاحُ سورة الأنعام "بالحمد" فإنه مناسبٌ لختام سورة المائدة من القضاء[3]. فسورة المائدة تنتهي **بقوله تعالى:** ﴿ **قَالَ اللهُ هَذَآ يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِيْنَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَآ أَبَدًا رَضِيَ عنهم اللهُ وَرَضُوْا عَنْهُ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيْمُ** ﴾[4] وتبدأ سورة الأنعام **بقوله تعالى:** ﴿**الحَمْدُ لِلَّهِ الذِيْ خَلَقَ السَّمَوْاْتِ وَالأَرْضِ وَجَعَلَ الظُّلُمَاْتِ وَالنُّوْرِ ثُمَّ الذِيْنَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُوْنَ**﴾[5] قد يذهب الباحث المعاصرُ إلى الاكتفاء بتكرار ألفاظِ السموات والأرضِ في نهاية السورة الأولى (المائدة) وبداية السورة الثانية (الأنعام) لإقامة المناسبة اللغويَّة بينهما لكنَّ الاعتماد على مجرَّد ظاهرة التكرار لا يكفي عالمَ القرآن الذي يريد أن يجد للعلاقة التي يكتشفها سندًا من النص ذاته ولو من جزءٍ ثالثٍ منه لذلكَ يتجاوزُ عالم القرآن مُجَرَّد الوقوف عند الآية الأخيرة ليتأمَّلَ الموقف في الآيات الخمس الأخيرة كُلَّهَا من سورة المائدة حيث يفصل الله بين عيسى بن مريم وبين قومِه يومَ القيامة في شأن ادَّعائهم ألوهيَّتة وإذا كان الموقف العام لنهاية السورة " موقفُ الفصل " فإنَّ علاقته ببداية سورة الأنعام التي تبدأ " بالحمد لله " علاقة يمكن اكتشافها استنادًا إلى جزءٍ ثالث في النص هو **قوله تعالى:** ﴿ **وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وَقِيْلَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ** ﴾ هذا الارتباط الذي يؤسَّسُهُ النص بين القضاء والفصل، وبين الحمد يتحوَّلُ إلى قانونٍ عام يفسر علاقات بعض السور مثل سورتي " فاطرُ " و" سبأ " فافتتاح سورة فاطر بالحمدِ جاءَ مُناسبا لختام ما قبلها (وهي سورة سبأ) والمناسبة بين هاتين السورتين هي العلاقة بين الحمدِ والفصل والقضاء حيث تنتهي سورة سبأ **بقوله تعالى:** ﴿ **وَحِيْلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَاْ يَشْتَهُوْنَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاَعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِ نَّهُمْ كَاْنُواْ فِيْ شَكٍ مُرِيْبٍ**﴾ قد يقول قائل إن موقف فصل القضاء لا يشبه الموقف في نهاية سورة سبأ، وهو موقفُ الحيلولة بين الكافرين وبين ما يريد ذلك النص نقول إنه بالاستناد إلى نص آخر نكتشف وجه المناسبة بين موقف القضاء وموقف الحيلولة وهذا النص[6] هو **قوله تعالى:** ﴿ **فَقُطِعَ دَاْبِرُ القَوْمَ الذِيْنَ ظَلَمُواْ وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ** ﴾[7] قطْعُ الدَّابر أشدُّ دلالة على الحيلولة من حيث هو قضاء على الوجود ذاته، ومن أمثلة المناسبة التي ذكرها

---

[1]- ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 35.

[2]- ينظر: مصطفى شعبان عبد الحميد، المناسبة في القرآن الكريم، ص 37.

[1]- ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 38.

[2]- سورة المائدة 119.

- سورة الأنعام 1.[5]

- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص 165، 166.[6]

- سورة سبأ 54.[7]

الزركشي أيضًا: مناسبة افتتاح سورة البقرة **بقوله تعالى:** ﴿ **الم ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيْهِ**﴾[1] لفاتحة الكتاب **لقوله تعالى:** ﴿ **اِهْدِنَا الصِّرَاْطَ المُسْتَقِيْمَ** ﴾[2] وتكمن المناسبة بين السورتين فيما ذكرَهُ البقاعي أنه لَمَّا أخبر سبحانَهُ وتعالى أن عباده المُخْلِصِينَ سألوا في الفاتحة هداية الصراط المستقيم الذي هو غيْرُ طريق الهالكين أرشدَهُم في أول التي تليها (سورة البقرة) إلى أن الهدى المسؤول إنما هو في هذا الكتاب، وبيَّن لهم صفات الفريقين الممنوحين بالهداية حثًّا على التخَّلق بها والممنوعين منها عن قُربِهَا فكان ذلك من أعظم المناسبات لتعقيب الفاتحة بالبقرة لأنها سبَقتْ لنفي الرَّيب عن هذا الكتاب، ولأنه هدى للمتَّقين، ولوصف الكافرين الذين لا يؤمنونَ لما وقعَ من الختمِ على حواسهم والختم لعقابهم لِيُعْلِمَ أنَّ ما اتَّصف بِهِ المتَّقونَ هو الصّراط المستقيم فيلزَمَ، وما اتَّصف بِهِ عداهُم هو طريق الهالكين فيترك، وفي الوصفِ بالتقوى بعد ذكر المغضوب عليهم ولا الضَّالين إشارة إلى المقامَ مقامُ خوف[3].

ويتجاوزُ التَّماسك بين السُّور هذا الارتباط الدلالي إلى:

أ) تماسك شكلي عن طريق علاقات نحوية من ذلك العلاقةُ بين " سورة الفيل " و"سورة قريش" وهي علاقة ارتباط لغوي تحولهمَا إلى سورة واحدة إذا كانت السورة الأولى (الفيل) تنتهي **بقوله تعالى:** ﴿ **فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُوْلٍ** ﴾[4] فإن السورة الثانية (قريش) تبدأ باللام: <<**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ**>>[5] بدلاً من أن تكون هذه اللام متعلقة بالمحذوف العامل في: " رِحْلَةَ الشَّتَاْءِ وَالصَّيْفِ " تكون متعلقة بنهاية السورة الأولى (الفيل) " فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ " وبذلك تكون السورتان سورة واحدة، ويكون المعنى: إنَّ الله قضى على أصحاب الفيل وكان ثمرة ذلك وعاقبته أنّ َقريشًا تآلفت، وتكون هذه اللَّام في أول سورة قريش لام العاقبة استنادًا إلى الأخفش الذي ذهب إلى أن اتصالهما من باب[6] **قوله تعالى:** ﴿ **فالتقطَهُ آل فرعون ليكونَ لهم عدو**﴾[7]

ب) علاقة تماسك بالتقابل وهو نمط آخر من العلاقات بين السور وقد ذكر الزّركشي في هذا النّوع التَّقابل بين سورتي الماعون والكوثر ففي سورة الماعون صفات أربع نقيضه لأنَّ السَّابقة (الماعون) قد وصف الله فيها المناطق بأمور أربعة هي البخل، ترك الصلاة، الرَّياء فيها ومنع الزكاة فذكر في مقابلة البخل﴿ **إنا أعطيناك الكوثر**﴾[8] أي الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة قال "فَصَلِّ" وفي مقابلة منع الماعون قال "وانحر" وأراد به التصدُّق بالأضاحي[9] فكل هذه التقابلات اعتبرت مناسبة عجيبة.

<u>مناسبة السورة للحرف الذي بنيت عليه:</u>

إنّ المتأمَّل لسورة القرآن الكريم يجد أن معظمها مبنية على حروف الهجاء وكثير ما نجد الحرف الذي بنيت عليه السورة جِدُّ متوافق ومتناسب مع المضمون الّذي احتوته السّورة والمقصود بمناسبة السّورة للحرف الذي بنيت عليه "أنّ كثيرًا من السُّوَر مسَمَّاة أو مقترحةُ بحرف من حروف اللغة، وإن معظم الكلمات تتألَّفُ منها السّورة يتراكَمُ فيها هذا الحرفُ ويتكرَّر، وربَّما كانت دلالة الكلمات معضدة للسَّمات الصَّوتية لهذا الحرف"[10] يقول الزّركشي في هذا الصَّدد <<وتأمَّل السورة التي اجتمعت على الحروف المفردة كيف نجد السورة مبنيَّة على كلمة ذلك الحرف

- سورة البقرة 1، 2.[1]

[1]- سورة الفاتحة 6.

[2]- مصطفى شعبان عبد الحميد، المناسبة في القرآن الكريم، ص 38.

[3]- سورة الفيل 5.

[4]- سورة قريش 2،1.

[5]- ينظر: نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، ص 168.

[6]- سورة القصص 8.

[7]- سورة الكوثر 1.

[1]- ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص39.

[2]- ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني من دراسة في العلاقات بين النص والسياق، ص 110.

فمن ذلك **قوله تعالى:** ﴿ **ق والقرآن المجيد**﴾[1] فإنَّ السورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن، وذكرِ الخلق، وتكرار القول، ومراجعته مرارًا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين، وذكرِ المتَّقين، وقول العتيد، وذكرِ الرَّقيب، والتنقيب في البلاد، وذكرَ القتل مرَّتين، وتشقُّقَ الأرضِ، وإلقاء الرَّواسي فيها، وسرُ ٌ آخر هو أنّ كُلَّ معاني السورة مناسب لما في حرف القاف من الشدَّة والجهر والقلقلة>>[2] .

فحرف القاف لِمَا يتمتَّعُ به من مميَّزات صوتيَّة جعلته الحرف الأنسب لمضمون السُورة.

ب-المناسبة بين الآيات:

إذا كان البحث عن المناسب بين السُّور قد حاوَل أن يقيم للنَّصَّ وحدة عامَّة تعتمدُ على تأسيس علاقات متعدَّدة ومختلفة ذات طابع تأويلي في أغلب الأحيان فإنَّ البحث عن المناسبة بين الآيات يُدخلنا مباشرة في صميم الدَّرس اللُّغوي لآليَّات النص وقد ذكر الزّركشي أثناءَ حديثِهِ عن المناسبة بين الآياتِ نوعين من الارتباط الذي قد يكون بين الآيات:

أولا: قد يكونُ ذكرُ الآية بعد الأخرى ظاهر الارتباط لتعلُّق الكلام بعضه ببعض، وعدم تمامهِ بالأولى، وكذلك إذا كانت الثَّانية للأولى على وجه التَّأكيد، أو التَّفسير.

ثانيا: قد يكون الارتباط بين الآيات غير ظاهر، بل أنَّ كلَّ جملة مستقلَّة عن الأخرى، وأنَّها خلافُ النَّوعِ المبدوءِ بِهِ[3] معنى ذلك أن العلاقات (المناسبات) احتمالات ممكنة على المفسَّرِ محاولة اكتشافها ومعناه تأسيس علاقة بين عقل المُفَسَّرِ أو القارئ وبين النَّص، فللُّغة آلياتها الخاصة التي بها تُمثِّلُ الوقائعَ تمثيلا حرفيًا بل تصوغها صياغة رمزية وفق قوانين خاصَّ فاللُّغة تصوغ هذه الوقائع في علاقات لغويَّة.[4]

ومن الأمثلة التي تندرجُ ضمن النَّوع الأوّل من الآيات.

أ) ما يندرج ضمنَ الآيات التي يكون الارتباطُ فيها ظاهرًا من ذلك ما تناوَلَهُ الزّركشي من بعض الآيات المعطوفة والتي يجمعُها رابط نحوي **كقوله تعالى:** ﴿ **أَلَمْ تَرَ إلى الذِيْ حَاجَّ إبْرَاْهِيْمَ**﴾[5] إلى **قول تعالى:** ﴿**وَاللهُ لاْ يَهْدِيْ القَوْمَ الظَّالِمِيْنَ أَوْ كالَذيْ مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ**﴾[6].

وليثبتَ الزركشي تماسُكاً بين << **أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِيْ** >> و << **أو كالذي**>> يلجأ إلى تقدير كلام محذوف يستقيم مع القاعدة النَّحويَّ في العطف فيرى بأنَّ "وجه التَّشابه بينهم أنَّ << ألم تَرَ>> بمنزلة هل رأيت كالذي حَاجَّ إبراهيم؟ وإنَّما كانت بمنزلتها لأنَّ << ألمْ تَرَ>> مرَكَّبَةُ من همزة الاستفهامِ وحرف النَّفي ولذلك يُجابُ ببلى، والاستفهام يعطي النفي، إذ حقيق المُسْتَفهمِ عنهُ غير ثابتة عند المُسْتَفْهِمِ وَمِنْ ثَمَّ جاء حرف الاستفهام مكان حرف النَّفي، ونفيُ النَّفي إيجاب فصار بمثابة <<رأيت>> غير أنَّهُ مقصودُ ٌ به الاستفهام ولَمْ يكن أن يُؤْتَى بحرفِهِ لوجودِه في اللَّفظ، فلذلك أعطى معنى هل رأيت فإن قلت: من أين جاءت << إلى>> وَ << رَأَيْتَ>> يتعدَّى بنفسه؟ أجيبُ: لتضمُّنهِ معنى تنظر"[7] بهذا يتَّضحُ وجه العطف بين الآيتين السابقتين.

ب) ما يندرجُ ضمن الآيات التي تكون فيها الثانية على وجه التَّأكيد أو التَّفسير **قوله تعالى:** ﴿**يَسْأَلُوْنَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاْقِيتُ لِلنَّاسِ والحَجَّ وَلَيْسَ البِرُّ أَنْ تَأْتُوْا البُيُوتَ مِنْ ظُهورِهَا**﴾[8]

فما هي العلاقة أو المناسبة بين ذكر الأهِلَّة وبين حُكْم إتيان البيوت؟

يكتسب السؤال أهمَّيتهُ من أنَّ الموضوعين تتضمنُهُمَا آية واحدة ولابُدَّ من ثمَّ أن يكون وجه الترابط قويًا ويحصرُ علماء القرآن وجه الارتباط بين الآي في أحد الاحتمالين الأول أن يكون ذكرُ

---

[3]- سورة ق1.

[2]- بدر الدين الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص168 .

[3]- ينظر: المصدر نفسه، ص 40.

[4]- ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، ص 108.

[5]- سورة البقرة 258.

3- سورة البفرة 259 .

[7]- بدر الدين الزَّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 46.

[8]- سورة البقرة 189.

إتيان البيوت من ظهورها نوعًا من التَّمثيل الرَّمزي لسؤالهم عن الأهلة وفي هذا الاحتمال يُفهمُ السُّؤال استنادًا إلى سبب النزول على أنَّه لم يكن سؤالاً استفهاميا بل كان على سبيل التهكُّم والسخرية، فقد تساءَلوا ما بال الهلال يبدأ أصغر ثُمَّ يكتمِلُ بدرًا ثُمَّ يعودُ هلالاً صغيرًا؟ فيجبهم النص القرآني بطريقة ساخرة ويبيَّنُ لهم أنهم في سؤالهم المعكوس شأنهم شأن من يأتي البيوت من ظهورها وبناءً على هذا تكون العلاقة بين جزئي الآية هي علاقة الممثول بالمثل ويكون الجزء الثاني من الآية من قبيل التمثيل لما هم عليه.[1]

أما الاحتمال الثاني فيذهب إلى أن إتيان البيوت من ظهورها نوع من الاستطراد بعد ذكرِ الحَجَّ رَدًا على سؤالهم عن الهلال، إنه من باب الاستطراد لما ذُكر أنها مواقيت للحَجَّ وكان هذا من أفعالهم في الحج ذلك أنَّ أناسًا من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل منهم حائطًا ولا دارًا فإن كان من أهل المدر نقب نقْبًا في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، وإن كان من أهل الوبر حرجَ من خلف الخباء، فقيلَ لَهُم ليس البرُّ بتخرُّجكم من دخول الباب لكن البرَّ من أتقى ما حَرَّمَ الله.[2]

ج) ومن الأمثلة التي تندرج ضمن النَّوع الثاني من الآيات ما تناوَله الزّركشي من آيات غير معطوفة فراحَ يبحثُ في أسرار التَّماسك بين هذه الآيات التي يوحي ظَاهِرُهَا بعدم وجود أَيَّ ارتباطٍ محاولاً أن يُقَدَّمَ تفسيرًا يُعلِّلُ تجاوز تلك الآيات ويمكنُ استخلاص قراء الزَّركشي لتلك الآيات في بعض العلاقات مثل علاقة التنظير، علاقة التضاد، تقدير المحذوف وغيرها وقد اخترنا علاقة التنظير نموذجًا.

علاقة التنظير: يرى الزّركشي أنَّ إلحاق النظير علاقة منطقية فمن دأبِ العقلاء إلحاق النظير بالنظير ويدرجُ ضمنَ هذه العلاقة التماسك الموجود في **قوله تعالى:** ﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بيْتِكَ بالحَقّ**﴾[3]**عَقِبَ قوله:** ﴿ **أولئك هم المؤمنونَ حَقًا لهم درجات عند رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَة ورزق كَرِيم**﴾[4] إنَّ الإشكال الذي تطرحه الآيتانِ هو ما وجه التَّماسك بين "أولئك هم المؤمنون حقا" وبين "كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ من بيتك بالحقّ" يُعلّلُ الزَّركشي التماسك في الآيتين بعلاقة التنظير حيث يقول <<فإنَّ اللهَ سبحانَهُ أمرَ رسولهُ أن يمضيَ لأمرهِ في الغنائمِ على كُرْهٍ من أصحابه كما مضى لأمرهِ في خروجه من بيته لطلبِ العِيْرِ وهم كارهون، وذلك أَنَّهُمْ اختلفوا في القتال يومَ بدر في الأنفال، وحاجُّوا النبيَّ صلى الله عليه ويلم في النقل، فأنزل الله هذه الآية وأنفذَ أمره بها وأمَرَهم أن يتَّقُوا الله ويطيعوه ولا يعترضوا عليه فيما يفعله(...)>>[5]

II - 2) السياق البلاغي:

تعد البلاغة من أهم العلوم العربية التي تبحث في علاقة المتكلّم والسامع وكيفية تحقيق عمليّة التبليغ ولهذا كان السّياق من أهم مباحثها، ومقولة " إن لكل مقام مقال" تحدّد مراعاة السّياق في بيان دلالة العملية اللغوية فيقول الجاحظ في هذا الشأن "لكلّ ضرب من الحديث ضرب من اللّفظ، ولكلّ نوع من المعاني نوع من اللّفظ، ولذلك يجب إفهام كلّ قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم".[6]

فكلام النّاس عند الجاحظ في طبقات كما أنّ الناس في طبقات ومن العلوم التي أوردها الزّركشي وتندرج ضمن هذا النوع من السياق نجد **التقديم والتأخير، الفصل والوصل، الحذف،** والا**لتفات،** ومعرفة الفواصل، **ورؤوس الآي** وكلّها تحقق حسن النظم وجودة السبك وقد قصرنا دراساتنا على التقديم والتأخير.

التقديم والتأخير:

---

[1] - ينظر: نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، ص 172.

[2] - ينظر: المرجع السابق، ص 172، 173.

[3] - سورة الأنفال 5.

[4] - سورة الأنفال 4.

[5] - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 74.

[6] - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، تح: فوزي عطوي، شركة الكتاب اللبناني، بيروت، 1968 ، ص 75.

تعتبر مسألة التقديم والتأخير في العناصر المكوّنة للجملة من الظواهر التركيبية والبنيوية في النصّ، وتكاد تكون ميزة القرآن الذي جاء نظمه موافقا للسياق، مراعيا للاعتبارات والفروق آخذا في الاعتبار حق الخطاب، وحق السياق فهو لا ينهج في ترتيب كلماته سوى هذا المنهج الفني، الذي يقدّم ما يقدم لمعنى تفهمه وراء وصف الألفاظ وحكمة تذكرها من هذا النسج المحكم المتين، الذي قد تتفاوت الأذهان في استنباط ما يلوح منه من معاني، واستخلاص ما يبدو من نكات، لأجل هذا رصد المفسرون هذه الظاهرة وحاولوا أن يفسَّر سبب حدوث مثل هذا التّقديم والتأخير، كما اجتهدوا في أن يتبيَّنوا أثرهُ على بناء النص، وأثره في قراءة هدف النّص أو العكس أي دور هدف النص على حدوث مثل هذا التقديم والتأخير.

موقع التقديم والتأخير في المصادر العربية:

إنَّ أهَمّ المصادر التي كان للتقديم والتأخير موقع فيها كتاب سيبوية، فهو "أول من طرق باب التقديم والتأخير واطلع على شيء من سره حيث توقف عند هذا الموضوع في أبواب كثيرة من كتابه منها على سبيل المثال باب الفاعل الذي يتعدَّاه فعله إلى مفعوله"[1] .

وإذا كان سيبويه أول من طرق باب التقديم والتأخير ونبَّهَ إلى أسراره فإن عبد القاهر الجرجاني أَوَّلُ من سبَر أغوارَهُ وعمَّق البحث في أغراضهِ حيث خصَّص لهُ فصلاً في كتابه **دلائل الإعجاز** استهله بتأكيد أهميَّةِ والتنويه بقيمته في قوله :"هو باب كثير الفوائد جمُّ المحاسنِ، واسعُ التصرُّف، بعيد الغاية، لا يزالُ يُفتَّر لك عن بديعِهِ ويفضي بك إلى لطيفهِ، ولا تزالُ ترى

شعرًا يروقك مسمعُهُ، ويلطف عندك أن قُدِّمَ فيه شيء وحُوِّل اللفظُ عن مكان إلى مكان"[2]، وإذا كان عبد القاهر الجرجاني قد رعى بذرة التقديم والتأخير التي بذرها سبويه وقوَّاها بالتحليل والتنظير حتى استقامَ عودُها واتضح كيانها عند من جاء بعده "فإنَّ الزمخشري، انتقل بهذا الكيان من مجال التحليل النظري إلى رحاب التطبيق العملي بأن ساسَهُ إلى أرض القرآن وآيات البيان حيث تناول في كتابه **الكشاف** الكثير من مسائله وتتَّبع العديد من مواطنه في القرآن فاستظهر صنوفًا من أغراضهِ وألوانا من ثماره، وقد استمدَّت منه كثير من التفاسير بعدَهُ مجال التقديم والتأخير، وإذا كانت كتب التفاسير مجالا تطبيقيا لمسائل التقديم والتأخير في القرآن فإنَّ بعض كتب علوم القرآن قد جمعت بين شيء من النظر والتطبيق من هذه الكتب نجد كتاب **البرهان في علوم القرآن** للزَّركشي الذي أشار فيه إلى كثير من الأغراض البلاغية الناشئة عن التقديم والتأخير"[3] حيث خصَّص لحديثه عن التقديم والتأخير فصلين وهما ما سنتناوله بالشرح والتفصيل.

مفهوم التقديم والتأخير:

لغة: مادة (ق.د.م) في المعاجم العربية "أصل يدل على سيف ورعف ثم يُفَرَّعُ عنه ما يقاربهُ، و(أ، خ، ر)، أصل واحدٌ إليه ترجع فروعه وهو خلاف التقديم"[4]، وفي معجم المصطلحات نجد أن التقديم من "قدَّم أي وضعهُ أمام غيره، والتأخير نقيضُ ذلك"[5].

اصطلاحا: فأما نجد تصريحًا لعلماء العربية بتعريف مصطلح التقديم والتأخير ولعّل ذلك راجعٌ إلى وضوحِ المصطلح وشدة اتّصاله بالمعنى اللغوي وما جاء في التعريفات الحديثة للتقديم والتأخير

---

[1] - علي أبو القاسم عون، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ج1، دار المدار الإسلامي، بيروت – لبنان، ط1، 2006 م، ص 71.

[1]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: سعيد كريم الفقهي، دار اليقين للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2001، ص 101.

[2]- علي أبو القاسم عون، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ج1، ص 22، 23.

[3]- المرجع نفسه، ص 41.

[4]- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، عربي – عربي، مكتبة لبنان، 2000 م، ص 41.

أنَّه " تغيير في لبنة التراكيب الأساسية أو هو عدول عن الأصل يكسبها حريّة ودقة"[1] على حد تعبير الدكتور أحمد مطلوب.

أهميته:

للتقديم والتأخير أهمية كبرى فهو "دليل مرونة العربية وحرَّيتها في تغيير بنية الكلام والتصرُّف في الرُّتب، كما أنه دليل التمكّن في الفصاحة"[2] والقدرة على تكييف الكلامِ أو القول بحسب أحوال المخاطبين حيث جاء في البرهان في علوم القرآن للزَّركشي أنّهم "أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلامِ، وانقيادهِ لهم، وله في القلوب أحسن موقع، وأعذب مذاق (...)"[3]، كما يلعب التقديم والتأخير دورًا كبيرًا في "إظهار الآثار النَّفسية للمتكلم، فهو يتضمَّن أبعادًا نفسية، ولطائف بلاغية، فما الأغراضُ البلاغية للتقديم والتأخير إلا ترجمة صادقة للأغوار النفسية، وانعكاسًا لخلجَات النفس، وسبرًا عميقًا لمكنوناتها"[4].

التقديم والتأخير عند الزَّركشي:

يعتبر التقديم والتأخير من الأبواب البلاغية التي كان لها حظ كبير في كتاب البرهان حيثُ أفردَ لها الزَّركشي فصلين كاملين خصَّص الفصل الأول للحديث عن **أسباب التقديم والتأخير** أمَّا الفصل الثاني فقد خصّصه لأنواعه وقبل الحديث عن هذين الفصلين لابد من الإشارة إلى رؤية الزّركشي للتقديم والتأخير حيث عدَّهُ: "أحد أساليب البلاغة (...) له في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق، وقد اختلف في عَدَّهِ من المجاز، فمنهم من عَدَّهُ منه لأنَّهُ تقديم ما رتبتُهُ التأخير، كالمفعول، وتأخير ما رتبته التقديم كالفاعل (...) والصحيح أنه ليس منهُ فإنَّ المجاز نقل ما وُضعَ له إلى ما لم يوضع"[5].

من خلال المقتطف السابق تبينت لنا رؤية الزَّركشي للتقديم والتأخير والتي انبنت على أن التقديم والتأخير أحد الأساليب البلاغية التي تطرَبُ لها القلوب وليس من المجاز كما اعتقدَهُ الكثيرون.

أسباب التقديم والتأخير:

مما لاشك فيه أن عملية التقديم والتأخير لا تتم عشوائيًا، بل هناك مجموعة من الأسباب تُحَتَّمُ على المتكلِّم أن يقدَّم كلمة في هذا الموضوع ويُؤَخَّرها في موضع آخر، وقد خصص الزَّركشي لها في كتابه فصلاً كاملاً سمَّاه: "في أسبابِ التقديم والتأخير" والتي حصرَهاَ في سبعة أسباب وهي:

أولا: "أن يكون أصله التقديم ولا مقتضى للعدول عنه كتقديم الفاعل على المفعول، والمبتدأ أعلى الخبر مثل زيد عارف، وصاحب الحالِ عليها نحو جاءَ زيدُ راكبًا"[6]فليس هناك سببُ للتقديم غير الترتيب الطبيعي للكلام .

ثانيًا: أن يكون في التأخير إخلال بيان المعنى فإذا ما عُرِفَ أَنَّهُ من باب التقديم والتأخير زال الإشكال[7] ومن الآيات التي ذكرهَا الزَّركشي في هذا المقام **قوله تعالى:** ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ**﴾[8] إنَّ المتأمل لهذه الآية يجد أنه لو أخرت <<مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ>> عن يكتُمُ إيمانه لِتَوهَّمَ أنَّ "من" متعلقة بـ : "يكتم" فإنه لَنْ يُفْهَمَ أنَّ الرَّجل من آل فرعون، بل يفهم أنه يكتُمُ إيمانه خوفًا منهم، وفي هذا إخلال بالمعنى المراد، كما يخفى بذلك معنى آخر وهو عناية الله تعالى

---

[5]- علي أبو القاسم عون، المرجع السابق، ص 42.

[6]- علي أبو القاسم عون، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ج1، ص 53، 55.

[1]- بدر الدين الزَّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص 233.

[2]- علي أبو القاسم عون، المرجع السابق، ص 55.

[3]- المصدر السابق، ص 233.

[4]- بدر الدين الزَّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص 233.

- المصدر نفسه، ص 233.[7]

[1]- سورة غافر 28.

ورعايته لموسى بأن جعل من آل فرعون من يدافِعُ عنه لكن لما قُدِّم "من آل فرعون" زال الإشكال والغموض[1].

ثالثا: "أن يكون في التأخير إخلال بالتناسب فيقدَّم لمشاكلة الكلام ولرعاية الفاصلة"[2] فإذا ما أُخِّرت آية حقّها التقديم اختلّ تناسب الآيات ومن الأمثلة التي ذكرها الزَّركشي في هذا **قوله تعالى** ﴿ **فَأَوْجسَ فِيْ نَفْسِهِ خيفة مُوْسَى**﴾ [3] إنَّ المتأمل في التعبير القرآني لهذه الآية يجد أنَّه آثر تقديم شبه الجملة وهي "في نفسه" ليجاوز الفعلَ ثم تلاهُ "خيفة" وذلك للإشارة إلى أنَّ الشعورَ بالخوفِ ظلَّ كامنا في النفس لم يتجاوزها إلى الظاهر وهو أمر في غاية المناسبة للمقامِ الذي كان فيه موسى ذلك أن المقامَ "مقام تحدٍ يحتاجُ إلى الثقة التامة لا إلى إظهارها الخوفِ، لاسيما أنَّهُ في جانب الحق، فاستوجبَ الأمرُ أن تكون لديه ثقة كالّتي لدى خصومهِ، ويظهر ذلك جليًا في تخييرهم إيَّاه بين أن يُلْقي أو أن يكونوا هم المُلْقِينَ، فالأمر لديهم سواء، إذْ الواثق من نفسه لا يبالي إن كان هو البادئ أو المختتم، بل إنَّهُمْ أبدوا رغبة في أن يكونوا هم البادئينَ إمعانًا في ثقتهم بأنفسهم وأن النَّصرَ حليفهم"[4] وهو ما يشير إليه **قوله تعالى:** ﴿ **إمَّا أَنْ تَكُوْنَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى**﴾ [5].

المعنى الذي يقتضيه المقام في هذه الآية استدعى أن يتقدَّمَ ما حقّه التأخير، ويتأخَّرَ ما حقه التقديم ليصبح فاصلة ويتناسبَ في موقعه المتأخر مع ذلك المعنى، كما أن تأخير المجرور (في نفسهِ) فبه خروج عن النّسق الصوتي وإخلال لموسيقى النّظم، لذلك قُدِّمَ المفعول والجار والمجرور وأخِّرَ الفاعل "لأنه رأس آية فناسب رؤوس الآيات التي قبله وبعده نحو ألقي، تسعى، الأعلى، آتى"[6].

رابعًا: "أن يكون التقديمُ لعظمهِ والاهتمامِ بِهِ ذلك أنَّ من عادة العرب الفصحاء إذا أخبرت عن مُخْبِرٍ ما وأناطت به حكمًا، وقد يشركُهُ في ذلك الحُكْمِ، أو فيما أخبَرَ عنهُ، وقد عطفت أحدهُمَا على الآخر بالواوِ المقتضية عدم الترتيب فإنَّهُمْ مع ذلك إنما يبدءونَ بالأهم والأولى"[7] بمعنى أن العربَ إذا تكلَّمت فإنَّها تبدأُ بالأهمَّ وتُقَدِّمُهُ على غيرهِ ومن الأمثلة التي ذكرها الزَّركشي في هذا الشأن **قوله تعالى:** ﴿ **وَأَقِيْمُوا الصَّلاَةَ وَأْتُوا الزَّكَاْةَ**﴾ [8] أمر اللهُ في هذه الآية بإقامة الصلاة وإيتاء الزَّكاة فهما مطلوبانِ ومقامُهُمَا في الطَّلَب الإيماني معلوم، لكن لما كانَ المبدوءُ هو إقامة الصلاة أهم قُدِّم.

خامسًا: "أن يكون الخاطرُ ملتفتًا إليه والهمة معقودة بِهِ"[9] وهو ما يتجلَّى في المثال الذي ذَكَرَهُ الزَّركشي وهو قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلُوْا لِلَّهِ شُرَكَاْءَ**﴾ [10]حيث "قدم الجار والمجرور (وهو لفظ الجلالة لله) على المفعول به (شركاء) لأنَّ الإنكار متوجَّه إلى الجعل لله فأن يُجْعَلَ لله شريك أمر مفرغ للمُوَحَّد أو المؤمن بالله لا يمكنه أن يقبل بأن يجعل للهِ شريكٌ".

سادسا: "أن يكون لإرادة التبكيت والتعجيب من حال المذكور"[11] ومن التبكيت الذي تحقق بالتقديم والتأخير ما ذكرهُ الزَّركشي من **قوله تعالى في سورة يس:** ﴿ **وَجَاْءَ مِنْ أَقْصَى المَدِيْنَةِ رَجُلُ يَسْعَى**﴾ [12].

---

[2]- ينظر: علي أبو القاسم عون، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن، ج1، ص 201.
[3]- بدر الدين الزَّركشي، البرهان في علوم القرآن الكريم، ص 244.
[4]- سورة طة 77، 78.
[5]- ينظر: مصطفى شعبان عبد الحميد، المناسبة في القرآن الكريم، ص 53.
[6]- سورة طة 78.
[7]- ينظر: علي أبو القاسم عون، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ج1، ص 208.
[1]- بدر الدين الزَّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص 253.
[2]- سورة البقرة 43.
[3]- بدر الدين الزَّركشي، المصدر السابق، ص 253.
[4]- سورة البقرة 43.
[5]- بدر الدين الزَّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص 236.
[6]- سور يس 20.

إنَّ تقديم الجار والمجرور هو(من أقصى المدينة) على الفاعل وهو رجل يحمل في طيَّاته توبيخًا لأهل المدين الكافرين المعرضين "فقد كانوا قريبين من الرُّغمِ من ذلكَ نصحَ لهم بما لم ينصحوا به أنفسهم"[1].

سابعًا: "أن يكون التقديم للاختصاصِ (التخصيص) وذلك بتقديم المفعول والخبر والظرف والجار والمجرور ونحوهما على الفعل"[2]. ومن الأمثلة التي ذكرها الزَّركشي عن التخصيص قوله تعالى: ﴿ **إن كنتم إيَّاه تعبدون**﴾ [3]بمعنى إن كنتم تخصّونه بالعبادة.

أنواع التقديم والتّأخير:

للتقديم والتأخير أنواع وهي لا تخرج عن ثلاثة: ما قُدِّم والمعنى عليه، ما قُدِّم النيَّةُ به التأخير، ما قُدِّم في آية وأُخِّر في أخرى.

النوع الأول: ما قُدِّم والمعنى عليه:

صرَّح الزَّركشي في كتابه أنَّ مقتضيات هذا النوع كثيرة وقد يسَّرَ اللهُ منها خَمْسًا وعشرين وهي: السّبق، الذات، العلّة والسّببية، الرّتبة، الدّاعي، التّعظيم، الشَّرف، الغلبة والكثرة، الترتيب، الحث عليه خيفة من التّهاون بهِ، لتحقق ما بعده واستغنائه هو عنه في تصوُّرهِ، الاهتمامُ عند المخاطب، للتنبيه على أنَّ السّبب مُرَتَّب، التنقل، الترقي، مراعاة الإفراد، التحذير منه والتنفير عنه، التعجيب من شأنه كونه أدل على القدرة، قصد الترتيب، خفة اللّفظ. وقد قصرنا دراستنا على بعض الأنواع وهي:

أولا التقديم للسبق: قد يشترك من عنصر كلامي في الدلالة على معنى واحد، لكن هذا الاشتراك ليس بدرجة متساوية بين جميع العناصر الكلامية فيقدَّمُ الأسبق فالذي يليه والسبق عند الزَّركشي أنواع منها.

السبق بالزمان: ومن الأمثلة التي ذكرها الزَّركشي في هذا النوع من السبق **قوله تعالى:** ﴿ **إِنَّ أَوْلَى النَّاس بِإِبْرَاهِيمَ لَلذِيْنَ اِتَّبِعُوهُ وَهَذَا النَّبي**﴾[4] "النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من أتباع سيدنا إبراهيم عليه السلام ولكنهم قُدِّموا عليه لوجودهُ قَبلَهُ زمانًا"[5] فالسبق بالزمان هو الذي استدعى تقديم أتباع سيِّدنا إبراهيم على نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلَّمَ.

السبق بالإيجاد: ذكرَ الزَّركشي في هذا النوع من السبق أمثلة كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ **لا تَأْخُذه سِنَةٌ وَلا نَوْم** ﴾ [6]قُدِّمت السَّنة على النوم في الآية الكريمة "لأن العادة في البشر أن تأخذهم السَّنةُقبل النوم فجاءت العبارة على حسب هذه العادة"[7] فالسَّنة سابقة على النّوم في الإيجاد لذلك وجب تقديمها.

ثانيا التقديم والتأخير للرُّتبة: أي أن يكون التقديم والتأخير وفق الرتبة التي يكون عليها ومن الأمثلة التي ذكرها الزَّركشي في هذا المقام قوله تعالى: ﴿ **وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَهِيْن هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بَنمِيْم مَنَّاْعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيْم عِتلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زنيمِ**﴾ [8] قبل استكشاف ترتب الصفات الوارد في الآية الكريمة لابد من الوقوف على معانيها والتي جاءت على النحو التالي:

حلاّف: صيغة مبالغة للحالف ونُسِبت بهذه الصيغة فاعل الحلف إليه لإكثاره منه، وهو صفة فظيعة وشنيعة تدُلُّ على قساوة النفس بإكثارها من الأيمان الكاذبة، ومهين: أي حقِير عند الله، همَّاز أي كثير المشي بالنميمة، ينقل الشرَّ، مَنَّاع للخير: بخيل، معتد: أي على النَّاس.

---

[7]- علي أبو القاسم عون، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ج1، ص 146.

[8]- بدر الدين الزَّركشي، المصدر السابق، ص 236.

[9]- سورة النحل 114.

[1]- سورة آل عمران 68.

[2]- منير محمود المسيري، دلالات التقديم والتأخير في القرآن، دراسة تحليلية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 2005 م، ص 136.

[3]- سورة البقرة 255.

[4]- ينظر: منير محمود المسيري، المرجع السابق، ص 137.

[5]- سورة القلم 10، 11.

أثيم فاجر "والترتيب بين هذه الصفات ليس ترتيبا زمنيا منيا للحصول في الموصوف، إنَّما كان الترتيب بينها طبقًا لرتبتها فما كان مُجرَّدًا سابق في الرُّتبة على ما كان لَهُ تعلقات بغيرهِ"[1] من هنا يتضح لنا أساس الترتيب بين تلك الصِّفات هو رتبتها في الوصف ومنزلتها فيه، فأفظعها وأشنعها كثرة الأيمان الكاذبة، يليها الوصفُ بالمهانة، ثم يليها الغيبة والنميمة.

ثالثا: التقديم والتأخير للداعية: من الأمثلة التي أوردها الزَّركشي في هذا النوع نجد قوله تعالى: ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِيْنَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوْا فُرُوْجِهِمْ**﴾ [2]"قُدِّم الأمر بغض البصرِ للرجال قبل النِّسَاء لأن نظر الرجل إلى المرأة أَعظَمُ فتنة من نظر المرأة للرجل، وتقدَّم الأمر بغض البصر على حفظِ الفرج لأن فعل العين يحدث قبل فعل الفرج، فالنظر على حد تعبير الزمخشري بريد الزنا ورائد الفحور والبلوى فيه أشد وأكثر ولا يكادُ يقدر على الاحتراس منه"[3] فالملاحظ في تقديم الأمر بغض البصر للرجال قبل النساء، وبغض البصر على حفظ الفرج أنه لم يأت جزافيا إنَّما جاء التقديمُ تنبيها على حجم الآثار الناجمة عن كل من الفعلين.

رابعا: التقديم والتأخير للتنبيه على أن السبب مرتب: من الأمثلة التي ذكرها الزَّركشي في هذا النوع **قوله تعالى**: ﴿ **يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهنَّمَ فَتُكْوَى بِهَاْ جِبَاهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ**﴾ [4] المتأمل لهذه الآية يجد أن ترتيب أعضاء الجسم قد جَاءَ متوافقًا مع المعنى المحقق في الواقع الخارجي، ذلك أن الإنسان في الدنيا يبخل بماله وعندما يصادفهُ الفقير يصرفُ عنه أعضاءَ جسمه بهذا الترتيب يصرف عنه وجهه أولا ثم ينوءُ بجانبه ثم يتولَّى بظهرهِ فالتناسب المعنوي وهو ترتيب المعاني في تآلف وانسجام يستلزم هذا التقديم والتأخير.[5]

النوع الثاني: مما قُدِّم النية به والتأخير:

يعتبر التقديم على نيَّة التأخير في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمهِ، الذي كان عليه، وفي جنسهِ الذي كان فيه كخير المبتدأ إذا قدَّمتهُ على المبتدأ أو المفعول إذا قدَّمته على الفاعل فالمقدم يحتفظ بوظيفته النحوية التي كان عليها التقديم[6]، ويرى الزَّركشي أنَّ ما يدل على هذا النوع من التقديم الإعراب ومن الأمثلة التي ذكرها في هذا المقام تقديم المفعول على الفاعل في **قوله تعالى:** ﴿ **إِنَّمَاْ يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاْءُ**﴾ [7] "قُدِّمَ اسم الله عز وجل لأن الغرض تبيينُ الخاشينَ من هم، للإخبار بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم ولو أخَّر ذكر اسم الله وقُدِّم العلماء فقيل إنما يخشى العُلَمَاءَ اللهُ لصَارَ المعنى ضدَّ ما هو عليه ولصارَ المعنى بيان المخشي من هو"[8]. لما كان المقصود بالتخصيص في الآية الخَاْشَونَ قُدِّم المفعول (الله) وأخَّرَ الفاعل (العلماء) لأن المقصود حصرُ الفاعلية، وهذا الحصرُ من موجبات تقديم المفعول وتأخير الفاعل.

النوع الثالث: ما قُدِّم في آية وأُخِّر في أخرى:

من الأمثلة التي أوردها الزَّركشي على هذا النَّوع من التقديم والتأخير نذكر **قوله تعالى**: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوْا أَوْلادُكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُم وَإِيَّاهُمْ**﴾ [9]**وقوله تعالى**: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوْا أَوْلادَكُمْ خِشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ**﴾ [10]ما نَلاحظهُ في الآيتين أن ضمير المخاطبين في سورة الأنعام جاءُ مقدَّمًا، وضمير الغائبين جاءُ مؤخَّرًا للتناسب مع السياق في حين نجد عكس ذلك في الإسراء حيث قُدِّم ضمير الغائبين وأُخِّر ضمير المُخاطَبينَ.

---

[1]- علي أبو القاسم عون، بلاغ التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ج3، ص 966،967.

[2]- سورة النور 30.

[3]- منير محمود المسيري، دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ص 192.

[4]- سورة التوبة 35.

[5]- ينظر: علي أبو القاسم عون، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن، ج1، ص 206.

[6]- ينظر: المرجع نفسه، ص 62.

[1]- سورة فاطر 28.

[2]- علي أبو القاسم عون، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ج1، ص 133.

[3]- سورة الأنعام 151.

[4]- سورة الإسراء 31.

التقديم والتأخير في كل من الآيتين مَرُّده إلى طبيعة الخطاب، فإذا نظرنا في كل آية نجد أن الخطابَ في آية الأنعام موجه إلى الفقراء، في حين الخطاب في آية الإسراءُ موجَّهُ إلى الأغنياء بدليل قوله في الأولى (الأنعام) من إملاق وفي الثانية (الإسراء) خشية إملاق فالعبارة الأولى تضمَّنت "من" التي تفيدُ السببية والتعليل لأن الفقراء يعيشونَ حاليًا في الفقرِ فيقتلونَ أولادهم لأنهم لا يجدونَ هم ما يأكلون فضلا عن أولادهم، أما العبارة الثانية فقد استخدمت فيها مفردَة حشية التي توحي بالخوف الآتي عبر المستقبل لا الخوف الآني لأن الأغنياء يعيشونَ اليومَ في بحبوحة وغنى ويخشون أن يأتي يوم يصابونَ فيه بالفقر، لذلك يلجأونَ إلى قتل أولادهم"[1].

لما كانت نفس المُخَاطَبِيْنَ في الآية الأولى أهم لهم من أولادهم لذلك قُدِّمَ الوعدُ برزق المخاطبينَ على الوعدِ برزقِ الأولادِ، أما في الآية في الثانية فرزق الأولادُ باعتبار المستقبل وهو المطلوب.

فمتى كان الإملاق الدَّافع للوأدِ هو إملاق الآباء قُدِّم الإخبار بأن اللهَ هو رازقهم وكمَّل بأنَّه رازقُ أبنائهم، ومتى كان الإملاق الدَّافع للوأدِ هو الإملاقُ المخشي وقوعه قُدِّم الإعلامُ بأنَّ اللهَ رازقُ الأبناء وكمَّل بأنَّهُ رازقُ آبائهم فالنظم في كُلٍّ من الآيتين جاءَ موافقًا للسياق، مراعيًا للاعتبارات والفروق آخذًا في الاعتبار حقَّ الخطاب وحقَّ السياق.

ما نخلص إليه في ختام حديثنا عن التقديم والتأخير أنّ الزَّركشي قد أفرد لهذه الظاهرة السياقية فصلين في كتابه مبيننا بذلك أسباب حدوثها، والأنواع التي يمكن أن يأتي عليها هذا التقديم، وذلك إدراكا منه لأهمية التقديم والتأخير في الكشف عن مقصدية الخالق عز وجل من النص القرآني القائم على حسن النظم ورصف الألفاظ.

---

[5]- علي أبو القاسم عون، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ج3، ص 934.

خاتمة:

إنّ دراسة البعد السياقي في كتاب البرهان في علوم القرآن لا يمكن أن تستوفيه هذه الصفحات بل يستأهل أن تفردَ له مجَّلدات بأكملها وذلك لأهميّة السياقات التي طُرِقَت في الكتاب وللهدف النّبيل والسَّامي المُتأَمَّل تحقيقه من وراء ذلك، كيف لا والمعالج لتلك السَّياقات عظيم من عظماء الأمة أفنى حياته لخدمة كتاب الله العزيز، الذي تربَّع على عرش الدَّراسات القرآنية بكلَّ جدارة واستحقاق فكان المورد العذب والمنهل الصَّافي الذي استقى من مائه الأجاج من جاءَ بعده من العلماء الذين يتقدمهم السيوطي صاحب كتاب الإتقان في علوم القرآن الذي صرَّح فيه بأنه سلك نهج الزَّركشي وتأسَّى طريقته في تأليفه لهذا الكتاب.

ولعل أهم ما توصَّلنا إليه من خلال دراستنا للبعد السياقي في كتاب البرهان في علوم القرآن تمثل في:

- حرصُ الزركشي على الفهم السليم والصَّحيح لكتاب الله ممَّا جعله يُضمَّنُ كتابه أبعادا سياقية ذات أهمية في إزالة الالتباس وتعدد التَّأويلات التي من شأنها الإخلال بمقصدية الخالق.
- تطرَّق الزَّركشي إلى فضاءات سياقية متنوعة تساهم في بيان طبيعة الخطاب القرآني والمواقف التي سيقت له وهذه السياقات لا تخرج عن دائرة السياق المقامي والسياق اللغوي.
- الشيء اللافت للانتباه أنَّ السياق البلاغي والمتمثل في التقديم والتأخير قد تناوله الزَّركشي بكثير من التفصيل حيث خصص له فصلين كاملين كون القرآن الكريم لا ينتهج في نظمه سوى هذا الأسلوب الفني البدوي الذي لا يقدم شيئا أو يؤخره إلاّ لحكمة تقتضيه.

قائمة المصادر والمراجع:

1) القرآن الكريم برواية ورش.
2) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج10، دار صادر، ط1، 1992.
3) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، تح: فوزي عطوي، شركة الكتاب اللبناني، بيروت، 1968 م.
4) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطوُّرها، عربي، مكتبة لبنان، 2000 م.
5) المثنى عبد الفتاح محمود، نظرية السَّياق القرآني، دراسة تأصيليَّة، دلالية، دار وائل للنشر، ط1، 2008 م.

6) بدر الدين محمد بن عبد الله الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، تح: محمد أبو الفضل، مكتبة دار التراث، القاهرة.
7) بدر الدين محمد بن عبد الله الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، تح: محمد أبو الفضل، مكتبة دار التراث، القاهرة.
8) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تح: فضيلة أبو الوفا مصطفى المراغي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط2، 1989 م.
9) حازم سعيد حيدر، علوم القرآن بين البرهان والإتقان، دراسة موازنة، دار الزَّمان للنشر والتوزيع، المدينة المنَّورة، ط2، 2006 م.
10) خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، جدار للكتاب العالمي، الأردن، 2008 م.
11) شهاب الدين بن حجر العقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج4، الهند، 1929م.
12) عبد الحميد أحمد محمد علي، مباحث التشبيه عند الزّركشي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1984 م.
13) عبد القادر عبد الجليل، المعجم الوصي لمباحث علم الدلالة العام، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان – الأردن.
14) عبد القاهر الجرجاني، دلائلُ الإعجاز في علمِ المعاني، تح: سعيد كريم الفقي، دار اليقين للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2001 م.
15) عبد المنعم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، دراسة لغوية، نحوية، دلالية، دار الوفاء، لدنيا الطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2007 م.
16)علي أبو القاسم عون، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ج1، دار المدار الإسلامي، بيروت – لبنان، ط1، 2006 م.
17) علي أبو القاسم عون، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ج3، دار المدار الإسلامي، بيروت – لبنان، ط1، 2006 م.
18) محمد عثمان يوسف، النص القرآني عند الزّركشي بين الفهم والتذُّوق، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، 2009 م.
19) محمود بن عمر الزمخشري أساسُ البلاغة، تح: محمد أحمد قاسم، المكتبة العصريَّة، صيدا – بيروت، ط1، 2003 م.
20) مصطفى شعبان عبد الحميد، المناسبة في القرآن الكريم، دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين اللفظ والسَّياق اللغوي، الإسكندرية، ط1، 2007 م.
21) منير محمود المسيري، دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، دراسة تحليلية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 2005 م.
22) نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط6.

المجلات والمنشورات

1) مجلة الإحياء، العدد 25.

فـهـرس المــحتـويـات

مقدمة..... أ
الفصل الأول: الزركشي وكتابه البرهان في علوم القرآن..... 2
المبحث الأول: نبذة عن حياة الزركشي..... 2
التعريف بالزركشي..... 2
آراء العلماء فيه..... 4
مؤلفاته..... 4
المبحث الثاني: نبذة عن كتاب الرهان..... 7
التعريف بالكتاب..... 7
المنهج الذي سلكه الزركشي فيه..... 8
المصادر التي استقى منها مادة الكتاب..... 10
آراء العلماء حول البرهان..... 11
الفصل الثاني: السياق في كتاب البرهان في علوم القرآن..... 14
المبحث الأول: مفهوم السياق وأهميته..... 14
تعريف السياق لغة واصطلاحا..... 14
أهميته..... 17
المبحث الثاني: أنواع السياق في البرهان..... 18
I) السياق المقامي:..... 18
I – 1) أسباب النزول..... 18
I – 2) المكي والمدني..... 21
II) السياق اللغوي:..... 24
II - 1) السياق التركيبي:..... 25
المناسبة..... 25
II – 2) السياق البلاغي..... 31
التقديم والتأخير..... 32
خاتمة.
قائمة المصادر والمراجع